علي صالح طمبل

مرافئ وشرفات

بحث دائب عن الإبداع والتميز والرقي

(مجموعة مقالات)





بسم الله الرحمن الرحيم

مرافــئ وشــرفات

بحث دائب عن الإبداع والتميز والرقي

مجموعة مقالات

تأليف: علي صالح طمبل



فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر – السودان

٨١٤,٠٠٨ علي صالح طمبل عثمان، ١٩٧٨

ع ص، م

مرافئ وشرفات: مقالات / علي صالح طمبل عثمان،

الخرطوم ع ص، طمبل عثمان ، ٢٠١٥

١٣٩ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك ISBN 978-99942-3- 716-6

١. المقالات العربية – مجموعات أ ، العنوان.

رقم الإيداع

٢٠١٥/٣٢٥م

الطبعة الأولى

يناير ٢٠١٦م

تصميم الغلاف:

سامي ابنعوف




بسم الله الرحمن الرحيم





المحتـــويات





الإهداء

إلى تلك الشخصيات التي خرجت على الركون

وتمردت على اليأس

في بحثها الدائب

عن الإبداع والتميز والرقي

وفي رحلتها القلقة في رياض العلم

وبساتين المعرفة

إلى كل من خرج من هموم ذاته

إلى هموم أمته

إلى كل من جعل الهموم هماً واحداً:

هم الآخرة

أهدي هذا السفر المتواضع...

مقـــــــــــــدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد

فهذه مجموعة من المقالات في التربية والثقافة والأدب، تمثل في مجملها محاولات دائبة للوصول إلى مرافئ الإبداع وبلوغ شرفات التميز والرقي، أقدمها للقارئ الكريم باعتبارها باكورة إنتاجي المطبوع.

وقد نشرت هذه المقالات على مدى ثماني سنوات منذ عام ١٤٢٧هـ الموافق لعام ٢٠٠٦م وحتى عام ١٤٣٥هـ الموافق لعام ٢٠١٤م في عدد من الصحف والدوريات ومواقع الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، مثل صحف (المحرر) و(الانتباهة) و(الصحافة) و(السوداني) و(آخر لحظة)، ومجلات (صحتك) و(الفرقان) و(المنتدى)، وشبكات (المشكاة) و(الألوكة) و(الهداية) و(الشروق) و(الإحسان)، كما تم نشرها في الفيسبوك وإرسالها عبر البريد الإلكتروني لعدد غير قليل من القراء.

وبحمد الله تبارك وتعالى، وجدت هذه المقالات تفاعلاً طيباً من القراء، فأشار عليّ بعضهم بجمعها في كتاب؛ لتعم الإفادة منها ويتعدى النفع بها، فاخترت مجموعة منها لتكون مرحلة أولى، تعقبها بقية المراحل التي تشمل ما لم ينشر من المقالات بإذن الله تعالى.

وقد صنفت هذه المقالات حسب نوع القضايا التي تتناولها، فكان أن شملت القضايا التربوية والاجتماعية والثقافية والأدبية، ولم أراعِ تاريخ كتابة المقال بقدر ما راعيت موضوعه، فجمعت في الترتيب بين الموضوعات المتشابهة أو ذات الصلة؛ مراعاة لتسلسل الأفكار وبلورتها، ووضوحها بالنسبة للقارئ الكريم.

ختاماً، أتقدم بالشكر الجزيل - بعد شكر الله جل وعلا – لكل من أسهم في إخراج هذا الكتاب برأيه وجهده وماله، وأخص بالشكر شيخي الفاضل يوسف فضل الله عبد الرحمن حفظه الله تعالى، الذي كان كثيراً ما يشد من أزري ويدفعني إلى مواصلة الكتابة والتأليف؛ حتى رأى هذا الكتاب النور بفضل الله سبحانه وتعالى.

كما أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجد القارئ في هذا الجهد المقل ضالته ومتعته، وأن يضيف إلى حصيلته المعرفية والعلمية ما يفيد؛ فيكون خير الجليس ونعم الأنيس.

علي صالح طمبل

الأربعاء ٢٥ ر بيع الأول ١٤٣٧هـ

٦ يناير ٢٠١٦م



مرافئ أسرية

وشرفات تربوية

لو يعلم الآباء..!!

لو يعلم الآباء النظرة التي ينظر بها الأبناء إليهم، لكان لهم شأن آخر في علاقتهم بهؤلاء الأبناء الذين لا يجد معظمهم من الآباء الرعاية الكافية ولا الاهتمام المطلوب.

لا أظن أن هناك أحداً يؤثِّر على أحد إيجاباً أو سلباً مثل تأثير الأب على ابنه إن استغل هذا التأثير استغلالاً أمثل؛ فالابن عادة ما ينظر إلى أبيه باعتباره القدوة المثلى، بل قد ينظر كثير من الأبناء – خاصة في مرحلة الطفولة – إلى آبائهم باعتبارهم عظماء أو عباقرة، ومهما بلغ الابن من العلم والمعرفة يشعر بنقصه أمام والده الذي كان سبباً في وجوده في هذه الحياة، والمربي الأول له. ولعل هذا التأثير الكبير هو الذي بيَّنه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**)[1]؛ فإذا كان الأب يستطيع توجيه الابن إلى اعتناق دين معين، فمن باب أولى أن يستطيع توجيهه إلى ما هو دون الدين بالطبع.

إن الآباء الذين ينشغلون عن أبنائهم، ويتركون تربيتهم للأم وحدها، أو للخادمة في البيت، أو للصديق في الشارع أو المدرسة أو الإنترنت، أو للمعلم في الروضة أو المدرسة، وغيرهم؛ إنما يتركون فراغاً لا يستطيع أحد سدَّه، مهما أوتي من مقدرات؛ وقد يترك بذلك ابنه أو ابنته فريسة لمعاول الهدم، وما أكثرها في مجتمعاتنا!

وتحضرني في هذا السياق قصة وصلتني في البريد الإلكتروني مفادها أن هناك تلميذاً كتب موضوعاً إنشائياً أبكى المعلمة، عنوانه (أريد أن أصبح تلفازاً)، وموجز هذه القصة أن هذا التلميذ يتمنى أن يصبح تلفازاً؛ لما وجد من اهتمام بهذا التلفاز من قِبَل

---

[1] رواه البخاري برقم (١٣٨٥).



أبويه؛ إذ يخصصان له الساعات الطوال، بينما لا يمنحانه من الوقت إلا الشيء اليسير، مما حدا به لأن يتمنى أن يصبح تلفازاً؛ حتى يحاط بالعناية والاهتمام اللذين وجدهما التلفاز!

كما اطلعت على كتاب اسمه (أبي اجلس معي ساعة) يذكر فيه كاتبه قصة طفل طلب من أبيه أن يجلس معه ساعة، فقال له الأب: لا وقت لدي أضيعه؛ إنني أكسب في الساعة الواحدة مائة جنيه. وبعد أيام طلب الطفل خمس جنيهات من الأب، فغضب أبوه وقال له: ألم أعطك خمس جنيهات صباح اليوم، لماذا تريد خمس جنيهات إضافية؟ فقال له الابن في سعادة: لقد تبقى لي مبلغ خمس جنيهات؛ حتى أكمل المائة جنيه فأعطيك إياها؛ لتجلس معي ساعة من زمنك!

وأذكر قصة قصيرة اسمها (أرجوك اسمعني) يجسد فيها البطل علاقته الباهتة بأبيه في صورة حسية، حيث تواجه غرفته غرفة والده، ويفاجأ كل يوم بأن والده يبني جداراً بين الغرفتين دون أن يوضح السبب. وبعد أيام وصل الجدار إلى السقف، فانفصلت الغرفتان تماماً، فأخذ يصرخ في خاتمة القصة ويقول منادياً والده: (لا بدّ من تحطيم هذا الحائط يا أبي.. أرجوك اسمعني ولو مرة واحدة.. سأقول لك كلّ ما كنت أود قوله منذ سنوات. نعم سأفعل ذلك.. فقط قم بتحطيمه أرجوك). ثم يقول في الخاتمة: (ولكن يبدو أنه لم يسمعني، ولن يسمعني مادام الحائط قائماً!).

حقيقة، إن كثيراً من الآباء يجعلون علاقتهم بأبنائهم علاقة شاحبة، لا تتعدى علاقة الإنفاق على المأكل والمشرب والملبس، فلا تنفذ إلى الأعماق، ولا تسعى للتغيير والتأثير على الابن، خاصة في مرحلة الطفولة التي يكون فيها طيّعاً سهل القياد، أكثر تعلقاً وإعجاباً بأبيه من بقية مراحل العمر، فيعطلون أدوارهم التي كان يمكن تفعيلها، لو وجهت التوجيه الصحيح. وللأسف قد يبحثون عن هذه الأدوار بعد فوات الأوان، حين يكبر أبناؤهم ويصبح من الصعب تغييرهم، كما قال القائل:

قد ينفع الأدب الأحداث في مهلٍ   وليس ينفع بعد الكبرة الأدبُ



إنَّ الغصـون إذا قوَّمـــتها اعتدلتْ   ولا يلين إذا قوَّمـــته الخشـبُ

كثير من الآباء لا يؤثرون على أبنائهم؛ لأنهم يضعون حواجز غير مبررة مع أبنائهم، تجعل العلاقة بينهم كعلاقة المدير بموظفيه، أو الرئيس بمرؤوسيه، أو قد لا تكون هنالك علاقة تذكر؛ فقد يكون طابع هذه العلاقة الإرهاب والقهر، بحيث إذا حضر الأب كفَّ اللاعب، وسكت الناطق. وقد تكون علاقة ضعيفة لا تسودها رقابة ولا يتخللها تقييم أو تقويم، وفي كلا الحالتين (الإرهاب والتهاون) يكون التأثير سلبياً؟؛ فيحاول الأبناء البحث عن دور الأب المفقود في غيره ممن لا يؤمن جانبهم، وكثير من الأسر انفرط عقدها حين فقدت دور الأب، واتجهت نحو الانحراف الأخلاقي والفشل الاجتماعي!

إن الأب الحصيف هو الذي يستغل كل مرحلة من المراحل العمرية لأبنائه، فيعمد إلى التعامل معها بما تقتضيه، فمرحلة الطفولة تتطلب معاملة تختلف عن مرحلة المراهقة والشباب والرجولة. وهو الذي يعمد إلى إزالة الفجوات والحواجز الموجودة في العلاقة مع الأبناء بالدرجة التي تقتضيها كل مرحلة، من غير إفراط ولا تفريط، وكما يقولون: في مرحلة قد يكون الابن أميراً، وفي ثانية قد يكون أسيراً، وفي ثالثة قد يكون وزيراً.

فجوات وحواجز في تربية الأبناء..!!

الواقع التربوي الذي تعيشه الأسرة السودانية أقل ما يمكن أن يقال عنه في رأيي أنه(واقع شديد المرارة)! ويعود إليه السبب في كثير من المشاكل التي يعاني منها مجتمعنا المعاصر.

إذا تأملنا في واقع أسرتنا السودانية نجد أنها تمثل مجموعة من الفجوات: فجوة بين الزوج والزوجة، فجوة بين الأب والأبناء، فجوة بين الأم والأبناء، فجوة بين الأبناء،... إلى آخر تلك الفجوات التي تكوِّن في نهاية المطاف ما يسمى عندنا اصطلاحا بـ(الأسرة)!

وتعريف الفجوة – في مفهومي – أنها مجموعة من الحواجز النفسية الموروثة التي يضعها أفراد الأسرة فيما بينهم، وهذه الحواجز هي التي تمنع انسياب المشاعر بين الأفراد، وتصيب الأحاسيس بالبرود والتبلد – إن لم نقل الجمود والجفاء – وتجعل العلاقة المتبادلة أقرب إلى الرسمية والآلية، أكثر من قربها من الود والصفاء والصراحة.

وأكبر خطأ يقع فيه الوالدان أن يقصرا مفهوم التربية على الطعام والشراب والملبس والصحة والتعليم، وغيرها من الاحتياجات المادية، متغافلين تماماً عن الناحية الروحية التي تفوق الناحية المادية من حيث الأهمية.

عندما يواجه الابن أو الابنة مشكلة ما فإنهما يبحثان عمن يعينهما على حلها، وفي الغالب يسعيان إلى حلها بطريقتهما الخاصة، أو باللجوء إلى شخص خارج العائلة عندما لا يجدان آذاناً صاغية في الأسرة، أو عندما ينعدم جو الصراحة داخل الأسرة؛ وتكون النتيجة في كثير من الأحيان وخيمة!

الأبناء والبنات يمرون بمراحل عمرية مختلفة، وكل مرحلة تحتاج إلى رعاية خاصة، ومتابعة تختلف عن غيرها من المراحل، لكن الواقع المشاهد يشي بأن أفراد الأسرة جميعهم – إلا من رحم – يعيشون في حالة من العزلة؛ فالأب في وادٍ، والأولاد في وادٍ آخر،



والزوج في وادٍ، وزوجته في وادٍ آخر! وكل تلك الحواجز سببها انعدام الصراحة والوضوح والأريحية.

وخير شاهد على ما ذهبنا إليه أننا نصاب بالدهشة والاستغراب حين نرى أباً يصادق ابنه، ويتحدث إليه دون حواجز، أو شقيقين لا يفترقان أو يتشاكسان، أو شقيقاً يعامل شقيقته بلطف، وتصارحه بكل صغيرة وكبيرة!

هذا الواقع الأسري الهش، إن لم نعمد إلى تغييره، وتمتين أواصره، وتغيير المفهوم التقليدي للتربية القائم على المادة دون الروح، وعلى الظاهر دون الباطن، فإننا سنجد أنفسنا في خاتمة المطاف أمام مجتمع متفكك ومهزوز، تتقاذفه أمواج الغزو الثقافي الذي بدأ ينهش جسده بالفعل، وتعصف به رياح العولمة التي أخذت تحتل مكانها عبر الظواهر الاجتماعية والممارسات الدخيلة على مجتمعنا.



هل كنت حقًّا طفلاً صغيرًا؟!

حين أرى طفلاً أو طفلة بصحبة أمِّه أو أبيه، تتردَّد في ذهني تساؤلات عدَّة، مبعثُها العجب والدهشة من هذه العلاقة الحميمة التي تجمع الأبوين بأبنائهما وبناتهما!

حينها أتساءل هل كنتُ حقًّا طفلاً صغيراً ذات يوم، أرتمي في وداعة وسكون واستسلام في أحضان أمي، وأرضع من ثَدْيها، وأُكثِر من البكاء لأتفهِ الأسباب! أتعثَّر في المشي، أَعجِز حتى عن إطعام نفسي، وقضاء حاجتي، وارتداء ملابسي، وعن زيارة كثير من الأماكن إلا إذا اصطحباني إليها؟! بل أعجزُ حتى عن النطق والتعبير عن حاجتي ومشاعري، حتى تعلَّمتُ على يدي أبويَّ النطقَ، وحفظتُ من ألفاظ اللغة الشيءَ الكثير؟!

وحين أرى ابنِي أو ابنتِي أتساءلُ:هل كان أبي وأمي يَسهَرانِ لمَرَضِي كما أسهرُ لمرض ابني أو ابنتي، ويَحمِلانِي إلى الطبيب كما أحمل ابني أو ابنتي؟!يا ترى كم أَنفَق أبي على طعامي وشرابي ومداواتي حتى صرتُ شابًّا قويًّا، كم أَنفَق عليَّ من الملابس والأحذية، واشترى لي من اللُّعب والهدايا والأدوات المدرسية؟! وكم دفع من رسومِ الدراسة، وأعطاني من المال، واصطحبني إلى شتَّى الأماكن مفاخرًا بي؟! كم مددتُ يدي إليه وطلبتُ من مصاريف؟!

هل كنت طفلاً قاصراً ضعيف البنية، لا أقوى على الدفاعِ عن نفسي، كما هو حال ابني وابنتي؟ وهل كان أبواي يفرحانِ لفرحي، ويحزنانِ لحزني، ويُفرِغَانِ وُسْعَهما في توفير الحماية والطمأنينة لي، ويَعُدَّانِ الأيامَ والشهورَ والأعوامَ ليريانِي قد صرتُ رجلاً قويًّا يَعتَمِد على نفسه، ويؤدِّي حق الله وحق العباد؟!

هل كنتُ عاجزًا عن فهم كثير من تعقيداتِ الحياة، وتغيب عني كثيرٌ من حقائق العالَم من حولي، حتى عَرَفتُ على يدي أبي وأمي الكثير، وتعلَّمت الكثير، ووعيتُ ما لم أكن أَعي من قبل؟!

الآن فهمتُ لماذا كان يَصِيح بي أبي ويَزجُرني أحيانًا - وهذا ما أفعله أحيانًا بابني أو ابنتي - نعم؛ لأنه يحبني؛ وهو مِثْل الطبيب الذي يُجرِي عملية جراحية مؤلِمة للمريض، لكنه يَعلَم أنها بالرغم من أَلَمِها فإن فيها شفاءه وبُرْأه وسلامته، زِدْ على ذلك أنني كنتُ أرتكب - بقصد أو بدون قصد - كثيراً من الأخطاءِ والحماقات التي تحتاج إلى تربية وتأديب وتوجيه.

الآن عَرَفتُ سببَ انفعال أبي أو أمي وعصبيَّتِهما في بعض الأحيان، فعَذَرتُهما حين دخلتُ مُعْتَرَك الحياة، وجرَّبتُ ضغوطها وتعقيداتها، وتزوَّجتُ وأنجبتُ؛ حينها أدركتُ أنني - مثلهما - بشرٌ لا يخلو من الانفعال أو الحدَّة في الطبع حين يُجَابَه بالمشاكل والضغوط!

حقًّا ما أضعفَ الإنسانَ، وما أعظمَ رحمةَ الله تعالى الذي سخَّر له الأبوين بحنانِهما وعطفِهما ورعايتهما؛ ليَجْبُرا كسرَه، ويرحما ضعفَه! إنها نعمة ينبغي أن تُقابَل بالشكرِ والعرفان لله - تعالى - أولاً، ثم بالإحسان إلى الوالدين في حياتِهما، والدعاء لهما بعد موتهما؛ لأنهما كانا بعد الله - تعالى - سببًا في وجودنا على ظهر هذه البسيطة، وهما اللذانِ رعيانا في كَنَفِهما حتى نشأْنا وتَرَعْرَعنا وشَبَبْنا عن الطَّوْقِ، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا

[1] [سورة لقمان: الآية ١٤]



قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾[1].

[1] [سورة الإسراء: الآيتان ٢٣ – ٢٤].



أسرة سودانية في بريطانيا.!!

ذكر لي صديقي المهندس المقيم مع أسرته في بريطانيا كيف أن بناته الثلاث أدمنّ القراءة، لدرجة أنه كان يضطر أحياناً إلى استخدام صلاحياته، فيأمرهنّ بالنوم مبكراً؛ حتى لا يسهرن إلى وقت متأخر من الليل، فيكون ذلك خصماً على يومهن الدراسي!

ذات يوم دخل على غرفتهنّ، فوجد كل واحدة منهن مستغرقة في القراءة، وبما أن الوقت كان متأخراً من الليل أمرهن بأن يخلدن إلى النوم؛ حتى لا يتأخرن عن المدرسة في الصباح الباكر، فأظهرن الانصياع لأمره، فأطفأ مصباح الغرفة، ثم ذهب إلى غرفته.

ولكنه عاد إلى غرفتهن ليطمئن قلبه على مثولهن لأمره، فإذا به يراهنّ وقد وضعت كل واحدة منهن الكتاب على رأس الأخرى في شكل رأسي، وأخذت تمرر الكتاب على شريط الضوء المنبعث من باب الغرفة الموارب، وطفقت تلتهم صفحات الكتاب في نهم عجيب!

وأخبرني بقصة أخرى، وهي أنه اشترى لهن ثلاثة كتب، وفي طريقه إلى المنزل قرأت كل واحدة منهن كتاباً، وحين انتهى ذلك اليوم كانت كلٌّ منهن قد قرأت الكتب الثلاثة، فاحتج بأنه لا يستطيع بهذه الكيفية أن يواكب نهمهن للقراءة؛ لأن الكتاب الواحد يكلف مبلغاً معتبراً!

ذكر لي ذلك المهندس هاتين القصتين في سياق حديثنا عن دور الأبوين في التربية، وأخبرني كيف نشأ في أسرة تحب القراءة وتشجع طلب العلم، فمنذ نعومة أظفاره وجد كتب والده من حوله، ورأى كيف يقضي والده الساعات الطوال، يقرأ ويبحث ويكتب، وكيف غرس فيه مبادئ الدين وقيمه الفاضلة لينشأ عليها ويحافظ عليها، هو وأسرته، حتى وهو يقيم في قلب أوربا حيث الانفتاح والعولمة والحريات، وكان أن ربى بناته على حب القراءة والتفوق في الناحية الأكاديمية حتى صرن يحصلن على المرتبة الأولى في



التحصيل الأكاديمي كل عام، وأغرمن بالقراءة حتى لم تعد الواحدة منهن تعبأ بالألعاب التي أحضرها والداها، ولم يعد لها وقت للتلفاز، فلجأ الوالد للتخلص منه، إذ لا أحد يبالي به!

حقيقة هذه القصة تعد حجة على كل من فرّط في تربية أبنائه وتذرع بحجج واهية، وألقى باللائمة على الشارع والمدرسة وأصدقاء السوء، وغيرها من التبريرات العجفاء التي لا تغني من مسؤوليته أمام الله شيئاً، وتؤكد تفريطه في دوره كراعٍ ومسؤول أولٍ عن رعيته، فها هي أسرة تقيم في بريطانيا وتحافظ على القيم، فتربي أفرادها على الأخلاق، وتغرس فيهم حب العلم والمطالعة.

كثير من الآباء والأمهات فرَّطوا أو عطلوا دورهم في تربية الأبناء والبنات، مع أنه الدور المؤثر والعامل الرئيسي، وما سواه لا يعدو أن يكون مجرد أدوار وعوامل ثانوية؛ بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ**)[1].

أبناؤنا في صغرهم مثل العجين يمكن أن تشكله كيف تشاء، وقديماً قيل: (العلم في الصغر كالنقش في الحجر)، فالذكاء مثلاً- كما أثبتت بعض الأبحاث – ٩٠% منه مكتسب، و١٠% فقط فطري موروث، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (**إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشر يوقه**)[2].

كل هذه أدلة على أهمية المكتسب في حياة الإنسان، وأن بوسعه أن يكتسب كثيراً من نافع العلوم وطيب الأخلاق إذا كان له استعداد نفسي لذلك، ووجد بيئة تعينه على اكتساب كل صالح ومفيد، أما أصحاب العزائم الواهنة والأعذار الجوفاء فلا مجال لهم في هذه العملية التربوية القاصدة التي تبتغي وجه الله تعالى بولد صالح يدعو لوالده بعد

---

[1] رواه البخاري برقم (١٣٨٥)

[2] السلسلة الصحيحة برقم (٣٤٢).

موته، فينفعه دعاؤه ويكون ما علَّمه من خير في ميزان حسناته؛ لأنه دعا إلى هدى، ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

التلفاز وتقاعد الأبوين عن التربية..!!

مما يؤسف له أن كثيراً من الآباء والأمهات تقاعدوا مبكراً عن وظيفة التربية، وتنازلوا عنها – طائعين – للشارع والأصدقاء والتلفاز! لينال الأخير النصيب المعلَّى من أوقات أبنائنا وبناتنا.

ولا يكمن الخطر في مجرد مشاهدة الأبناء للتلفاز، بل في طبيعة الأشياء التي يشاهدونها، وفي إدمانهم – خاصة الأطفال – لهذه المشاهدة التي تصل إلى حد التسمر لساعات طويلة أمام هذه الشاشة البلورية، دون رقابة أو متابعة من الوالدين!

وأدلُّ دليل على أن كثيراً من الأطفال قد وصلوا في مشاهدتهم للتلفاز حداً أقرب إلى الإدمان ما توصلت إليه إحدى الدراسات الأمريكية التي بيَّنت أن الطفل يشاهد التلفاز في العادة بمعدل ٢٣ ساعة في الأسبوع الواحد، بينما خلصت دراسة مصرية إلى أن أطفال مدينة القاهرة يشاهدون التلفاز بمعدل ٢٨ ساعة في الأسبوع الواحد! وقس على ذلك حال أطفالنا!

كثير من الآباء والأمهات يفرحون بانشغال أبنائهم بالتلفاز، ويظنون أنهم بذلك يستريحون من خروجهم المتكرر خارج المنزل، ويتخلصون من شغبهم وضجيجهم، ويتحاشون شجارهم مع بعضهم البعض، ولا يدرون بأنهم بتسليم القياد للتلفاز إنمايعرضون أبناءهم لمخاطر جمة، قد تؤثر سلباً على حياتهم المستقبلية!

من الخطأ، بل من السذاجة أن يظن الوالدان أن البرامج التي تُبث في القنوات الفضائية لا تحمل سوى أهداف نبيلة، الغرض منها لا يعدو التسلية المفيدة، ويفتخر بعضهم بأن أبناءهم صاروا يتحدثون باللغة العربية الفصيحة من فرط مكوثهم وتسمرهم أمام شاشة التلفاز! وهذا إما أنه دليل على جهل بطبيعة هذه البرامج، أو تغافل عن محتواها الذي لا يخلو في معظمه من سموم مبثوثة، تديرها أغراض لا تخلو من خبث،



تسعى لغزو المجتمعات ثقافياً، والنيل من عقيدتها، وتدمير بنيتها الاجتماعية المتماسكة؛ ليصبح الفرد غارقاً في مستنقع الشبهات والذاتية والتفسخ الأخلاقي، أسوة بنظيره الغربي! وقد أثبتت دراسة أن حوالي ٧٥% من البرامج التلفزيونية التي تُعرض في الدول العربية والإسلامية هي ذات إنتاج أجنبي، وأن حكومات هذه الدول لا تسيطر إلا على ٢٥% من المعلومات والبرامج الموضوعة والمعروضة لمواطنيها؛ مما ينم عن حجم الاستهداف الغربي لمجتمعنا.

كما لا يهتم كثير من الآباء والأمهات بما إذا كانت هذه البرامج تناسب أعمار أبنائهم أم لا، مع أن الغرب الذي أنتج هذه البرامج يحدد في كل منتج عمر الطفل الذي يشاهده، وهل يشاهده في حضور أحد والديه أم لا، خاصة إذا كان الأمر يتعلق ببرامج تحتاج مزيداً من الشرح والتفسير والتوجيه من أحد الوالدين.

ومن سلبيات هذه البرامج التلفزيونية أن كثيراً منها يحض على العنف، ويعرض مشاهد تحرض الأبناء على الأفعال الخشنة القاسية التي لا تناسب أعمارهم؛ مما ينعكس واضحاً فيما بعد في سلوكهم تجاه غيرهم من الأطفال، حين يفتعلون الشجار، ويستخدمون القوة الجسمانية في أبسط الأشياء، هذا غير محاولتهم محاكاة ما يرون في هذه البرامج؛ مما يعرضهم للخطر، كمحاولة السقوط من الأماكن العالية، أو القفز لمسافات بعيدة، أو الطيران، على نحو ما يفعل طرزان أو الرجل الوطواط أو السوبرمان، وغيرهم من الأبطال الوهميين.

وكثير من هذه البرامج يجعل الأبناء يعيشون في عالم غير واقعي، غارقٍ في الخيال والفنتازيا، فيبعدون بذلك عن محيطهم الاجتماعي، ويميلون للانطواء والانعزال عن المجتمع، هذا غير حالة التبلد الذهني التي تصيبهم من فرط مشاهدة التلفاز؛ مما يلقي بظلاله السالبة على تحصيلهم الأكاديمي ومستوى ذكائهم.



ويسهم إدمان مشاهدة التلفاز في إذكاء العقوق لدى الأبناء، بشدِّه لانتباههم للدرجة التي لا يريدون معها حِولاً عنه، فإذا ناداهم أحد الأبوين لحاجته لم يُلقوا له بالاً! ليكون هذا الامتناع فيما بعد إيذاناً بالتمرد والعقوق، وإرهاصاً باتساع حجم الفجوة التي تفصل بين الطفل وأبويه.

لقد أثبتت الدراسات أن التلفاز هو أحد وسائل انتشار الجريمة، حيث يتعرف الطفل على أساليب الجريمة من خلال متابعته للشخصيات الشريرة التي استحدثت وسائل وأساليب متنوعة للإضرار بالآخرين! فيدفعه إعجابه بهذه الشخصيات إلى تقليدها في كل شيء، بما في ذلك الجريمة وما يرتبط بها من سلوكيات منحرفة، كالتدخين وتعاطي المخدرات وشرب الخمور.

وتسهم كثير من برامج التلفاز في إضعاف خُلق الحياء لدى الطفل، باعتياده على مناظر العُري لدى أبطال البرامج التلفزيونية، ومتابعته للعلاقات العاطفية، وما يصحبها من ممارسات غير مشروعة؛ فيقرُّ ما يراه باعتباره أمراً مباحاً لا عيب فيه؛ ويزيد الوضع سوءاً أن بعض الآباء يتركون أطفالهم يشاهدون إلى جوارهم مسلسلات الكبار التي لا تخلو من مشاهد تخدش الحياء، دون توجيه أو إنكار، وكأنهم يتعاملون مع جمادات أو آلات صماء، لا إحساس لها ولا تفكير!

إن هذا الوقت الثمين الذي قد يمتد إلى أربع ساعات في اليوم، تُهدر في مشاهدة التلفاز، كان يمكن أن يوظف توظيفاً أمثل في تنمية مقدرات الطفل ومهاراته، وصقل إبداعاته وملكاته، كالحفظ والقراءة والرسم، وبناء شخصيته وتشكيلها، بحيث تصبح فيما بعد شخصية فاعلة، تسهم بدورها في ترقية المجتمع والنهوض به.

ختاماً، نرجو أن يكون في ما ذكرنا ما يلفت انتباه الآباء والأمهات إلى خطورة ترك الحبل على الغارب في علاقة أبنائهم بالتلفاز، وأن يضطلعوا بمسؤوليتهم التي استرعاهم الله إياها تجاه أبنائهم، بدلاً من إيثارهم التقاعد المبكر؛ ليشغر التلفاز وظيفتهم، فيكون المربي والمعلم والموجه!

الأبناء في مجتمعاتنا: تنشئة مدللة على فراش الكسل..!!

إذا رأيت رجلاً يمشي مع امرأة، أو شاباً مع شابة، فمن السهل أن تعرف العلاقة بينهما؛ فإذا كان الرجل - أو الشاب – مقطِّبَ الوجه، يتحدث بصوت عالٍ خشن، أو يمشي على بعد مسافة لا تقل عن المتر بينه وبين المرأة – أو الشابة – فاعلم أنه إما زوجها، وإما شقيقها!

وإذا كان الرجل – أو الشاب – وضاح الوجه، باسم الثغر، يتحدث بصوت رقيق هامس، فاعلم أن المرأة – أو الشابة – إما أن تكون خطيبته أو محبوبته، ولو أحسنت الظن بهما لقلت إنهما حديثا عهد بالزواج.

وللأسف الشديد: هذه هي القاعدة العامة في مجتمعنا، إلا من رحم الله، فإنه يشذُّ عن هذه القاعدة!

*****

في أسرنا ينشأ الولد على الكسل والخمول، فلا يغسل ملابسه، ولا ينظف غرفته، ولا يرتب فراشه الذي نام عليه، ويُترك نائماً حتى يصحو بعد أن تشرق الشمس ليجد الإفطار معداً، بينما أخته هي التي تغسل ملابسه، وتنظف غرفته، وتعيد ترتيبها، وتعد له طعامه، وتهيئ له حتى فراشه الذي ينام عليه!

وهذه التنشئة المدللة للولد، والتي تسهم فيها للأسف الأمهات بقدر كبير بأمرهن لبناتهن بخدمة أبنائهن في كل صغيرة وكبيرة، هذه التنشئة هي إحدى الأسباب التي تجعل الابن ينظر إلى أخته أو زوجته نظرة دونية، تجعله يتحدث معها بخشونة، أو يعاملها بجفاء، لدرجة أنه يبتعد عنها حتى في مشيه، كما جاء في مقدمة الموضوع؛ مما يفضي إلى فشل

الحياة الزوجية لكثير من هؤلاء الأبناء؛ لأنهم رُبُّوا على أن يُخدموا ويُطاعوا دون نقاش أو تفاهم، وهذا الوضع إن نجح مع الأخت التي تقبله على مضض، فلن ينجح مع الزوجة التي ترفضه في أغلب الأحيان.

*****

إذا أردنا معرفة الأثر السالب لهذه التنشئة الخاطئة على حياة الولد مستقبلاً: لِنَزُرْ غرفة للطلاب في أي داخلية، ونقارنها بغرفة الطالبات، حتماً سنجد الفارق شاسعاً! إذ أن غرفة الطلاب تسودها الفوضى، ويغيب فيها التناغم؛ فالملابس والأحذية والكتب والصحف مبعثرة في كل مكان، في الأسِرَّة، والنوافذ، وعلى الأرض، أما أرضية الغرفة فجدرانها لا تُنظف إلا لماماً، وتفتقد الفُرُش التي يُنام عليها إلى النظافة والترتيب، بينما تنبعث من الغرفة روائح منفرة!

وعلى النقيض من ذلك غرف الطالبات التي يزينها الترتيب والنظافة والنظام، وتفوح منها الروائح العطرة الطيبة!

وإذا انتقدتَ مجموعة من الشباب يسكنون منزلاً من المنازل أو غرفة من غرف الداخليات على إهمالهم وقلة اكتراثهم بنظافة المنزل وترتيبه، لقالوا لك ببساطة متناهية: (ده بيت عزابة!)، وكأن العزوبية مبرر منطقي لكسلهم وتقصيرهم!

*****

والسؤال المتوقع هنا: لماذا لا يُعوَّد أبناؤنا منذ الصغر على الاعتماد على أنفسهم؛ حتى يشبوا على تحمل المسؤولية تجاه أنفسهم وغيرهم، بعيداً عن الكسل والخمول؛ فما المانع مثلاً في أن يغسل الابن ملابسه، ويرتب غرفته، ويعد طعامه بنفسه، خاصة إذا جاء متأخراً، بل ما المانع أن يتعلم شيئاً من الطبخ ويساعد أمه أو أخته أحياناً في غسل الأواني؛ حتى إذا سكن ذات يوم وحده أو تزوج لم يشق عليه ذلك؟!



وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم، وهو خير البشر، يعين زوجاته في عمل البيت، فكان في مهنة أهله؛ أي خدمتهم، كما كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله؛ ففي الحديث: (**سألتُ عائشة رضي الله عنها ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في أهله، قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة**)[1]، وفي رواية للإمام أحمد: (**كان يخيط ثوبه ويخصف نعله، قالت: وكان يعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم**)، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحسن معاملة النساء ويوصي بهن خيراً، حيث قال: (**استوصوا بالنساء خيراً**)[2].

فالأحرى بنا أن نقتدي بهدي النبي صلى الله عليه وسلم ونقتفي أثره، فنعوّد أبناءنا منذ الصغر على الاعتماد على أنفسهم في أمورهم الخاصة، وأن يساعدوا أمهاتهم وأخواتهم، وزوجاتهم فيما بعد، ويحسنوا التعامل مع النساء بوجه عام؛ فإن هديه عليه الصلاة والسلام هو أكمل هدي، وسنته هي خير السنن.

---

[1] رواه البخاري برقم (5692).

[2] متفق عليه.



قصص الأطفال بين الرعب والإثارة..!!

(الغول)، (البعاتي)، (ود أم بعلو)، (السحّار): أبطال خرافيون لقصص كنا نسمعها من أفواه الحبوبات (الجدّات)، فتبث فينا الأخيلة المخيفة التي ترتعد لها فرائصنا خوفاً ورعباً!

هذه القصص العجيبة، أو (الأحاجي) - كما نسميها - التي كانت تحكيها الحبوبات لنا، فنجتمع حولهن في شغف ولهفة، قد ساهمت كثيراً في تشكيل شخصياتنا في مرحلة الطفولة، فلا تعجب إن رأيتنا نخاف من الظلام بعد سماعنا لهذه القصص، خاصة وأن الكبار كانوا يخيفوننا بأبطال هذه القصص إن لم ننصاع لأوامرهم، فيقولون: (سأكلم لك البعاتي إذا لم تسمع الكلام) أو (إذا خرجت إلى الشارع ستجد السحَّار في انتظارك)! وهكذا يخرج هؤلاء الأبطال المرعبون من عالم الخيال والحكايات ليشاركونا في عالم الواقع المعاش؛ إمعاناً في إرهابنا وبث الرعب في قلوبنا!

وحين كبرنا، وجدنا أمامنا قصص الخيال الذي لا يخلو من رعب وإثارة، مثل قصص (المكتبة الخضراء)، فقرأنا عن (الساحرة الشريرة)، و(أليس في بلاد العجائب)، و(عروس البحر)، و(أميرة القصر الذهبي)، و(الحصان الطيار)، وغيرها من القصص الموغلة في الخيال.

ثم انتقلنا إلى مرحلة أخرى تعتمد على الإثارة والحركة، فقرأنا (الشياطين الـ١٣) و(رجل المستحيل) و(المكتب رقم ١٩)، وما شابهها من روايات.

وأتذكر في هذه المناسبة قصة طريفة كتبها الأستاذ إبراهيم الأزرق بموقع الألوكة تحت عنوان (حتى لا تكون وغداً يوماً ما!)، تحكي عن والد اشترى لابنه جملة من القصص المثيرة ليعوِّده على القراءة، وحسب تعبير الكاتب فقد فهمتُ أن المعني بعذه القصص سلسلة (رجل المستحيل) التي كان يكتبها منذ مطلع ثمانينيات القرن الماضي د.



نبيل فاروق، حيث يقول الأزرق عن القصص أنها (تتحدث عن مغامرات رجل ذي قدرات خارقة، يعمل في بعض أجهزة المخابرات العربية، له قدرة فائقة على مباغتة أعدائه، وإتيانهم من حيث لا يحتسبون، يحسن المبادرة، سريع الاستجابة، يملك تحريك أطرافه الأربعة في آن واحد أثناء الشجار مع الخصم!).

ثم يروي كيف بدأ الطفل يسلك مسلكاً عدوانياً تجاه إخوته الصغار حتى شكت الأم إلى زوجها سلوك ابنهما، فبحث الوالد عن ابنه، فقيل له إنه في غرفته التي لا يجرؤ أحد على دخولها، فدخل الغرفة، وأخذ يجول بنظره وسط الألعاب المبعثرة، عله يعثر على ابنه!

وفجأة دوّى صوت ابنه ليقول من ورائه: خلفك أيها الوغد!

علماً بأن (الوغد) أحد أكثر الكلمات المتداولة في روايات (رجل المستحيل) التي ذكرناها!

مما يدعو للحسرة والأسف أن كثيراً من حكايات الجبوبات والقصص التي اطلع عليها أطفال الأمس والمسلسلات والقصص التي تعرض على أطفال اليوم لا تكاد تخلو من جانبين: الخيال الخارق الذي يبعث على الخوف والرعب، والإثارة الحركية المدهشة التي تفعل ما لا يمكن فعله على أرض الواقع!

والسؤال الذي يلح في هذا الصدد: هل أبناؤنا بحاجة إلى مثل هذه القصص المختلقة الضاربة في الخيالية والإثارة، سواء كانت في الكتب والمجلات أو المسلسلات والأفلام؟! وهل تساعد هذه القصص على بناء شخصية الطفل وتنمية ذكائه على الوجه المطلوب، أم تسهم في عزلته، وتهز ثوابته وقناعاته، وتجعل شخصيته رهينة الخوف، وأسيرة نماذج لأبطال لا يمتون إلى الواقع بصلة؟!

نحن لسنا ضد استخدام الخيال مطلقاً في قصص الأطفال؛ لأن هناك نوعاً من الخيال ينمي ذكاء الطفل، ويوسع دائرة تفكيره، وهو الخيال العلمي الذي يعتمد على



حقائق ومعلومات علمية، أما الخيال الخارق المجافي للواقع، فلا يسهم إلا في أن يعيش الطفل في انفصام وعزلة عن واقعه، وربما أصبح يشكل خطورة على من حوله – على نحو ما قرأنا في قصة إبراهيم الأزرق – غير ما يسببه في إضعاف شخصيته بتعرضه للرعب والخوف حين يشاهد أبطالاً خارقين وعوالم مخيفة لا وجود لها في الواقع.

أطفالنا يحتاجون إلى نماذج واقعية وقدوات حقيقية يقتدون بها ويترسمون طريقها، وتاريخنا وواقعنا – بحمد الله – يزخران بالقصص والوقائع المشرفة القوية التي تكفل تربية أبنائنا على مكارم الأخلاق، وعلو الهمة، ورباطة الجأش، لا على القدوات المزيفة، والنماذج المشوهة، والشواهد الكاذبة التي تقدمها كثير من قصص اليوم في غفلة من الأسر والمربين!

والقرآن الكريم حين ساق القصص في سياق الآيات، ذكر بأنها قصص سيقت من أجل العبرة والتفكر من قبل أولي الألباب والعقول، وأكد في ذات الوقت أنها ليست قصصاً مفتراة مختلقة، فقال تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، وقال جلَّ من قائل: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

تراثنا وواقعنا حافلان بقصص الأنبياء والصالحين والقادة والمصلحين الذين يمثلون قمة الكمال البشري في كل مجالات الحياة، فقد بلغوا من كل خلق كريم غايته، ومن كل طبع أصيل ذروته، ومثَّلت قصصهم أحسن القصص التي تقدِّم أفضل النماذج للبشرية جمعاء؛ فأحرى بأبنائنا أن يحتذوا بهذه القدوات الحقيقية، وأن يتمثلوا تجاربهم العملية واقعاً معاشاً في حياتهم، وعلى رأس هؤلاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام رضوان الله عليهم، قال تعالى:﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ

---

[1] [سورة يوسف: الآية ١١١].

[2] [سورة الأعراف: الآية ١٧٦].

وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[2].

---

(1) [سورة الأحزاب: الآية ٢١].

(2) [سورة الأنعام: الآية ٩٠].

قصة طفل مشاغب في المسجد..!!

في أحد المساجد كان هناك طفل لم يتجاوز العاشرة من عمره، اشتُهر بالشغب و(الفهلوة) و(الشيطنة)، وسمِّ ما شئت من ألقاب الفوضى وأوصاف العبث، فإذا أثير لغط أثناء الصلاة، فاعلم أن وراءه هذا الطفل، وإذا نشبت معركة بين الأطفال، فثِقْ أن من أشعلها هو صاحبنا؛ فهو – بالرغم من قصر قامته ونحافة جسده – زعيم العصابة، وقائد (الشُّلة)، والآمر الناهي في الأطفال!

وتوالت المشكلات التي سببها هذا الطفل في المسجد، حتى صار مصدر إزعاج لكثير من المصلين الذين تباينت ردود أفعالهم، فمن شاتم له، ومن منتقد لتربية والديه له، ومن طارد له خارج المسجد، ومن ضارب له؛ حتى وصل الأمر بأحد المصلين أن منع أبناءه من الحضور إلى المسجد، بحجة حمايتهم من التأثر بأخلاق وسلوكيات ذلك الطفل المشاغب!

ولكن الطفل لم يترك المسجد، بالرغم من موجات التعنيف والتوبيخ والتضييق التي لحقت به من المصلين، بل ظل ملازماً له؛ فقد كان المسجد متنفسه ومصدر سعادته ومتعته!

كان معظم المصلين قد اتخذوا موقفاً سلبياً تجاه ذلك الطفل، إلا القلة القليلة، ومن هذه القلة شاب بدأ يتقرب إلى الطفل، ويتعرف عليه عن قرب، ويثني عليه أمامه، ويحاول امتصاص شحنات غضبه المنصبة على المصلين الذين يعنفونه والأطفال الذين يتشاجر معهم، ويحاول في الوقت نفسه توجيه حماسه وطاقاته المتقدة نحو العمل النافع.

وكان أن اقترح الشاب على الطفل أن يجمع له مجموعة من الأطفال في مثل عمره ليكوِّنوا حلقة لتحفيظ القرآن الكريم، فجمع له ذلك الطفل بعلاقاته ونفوذه وسط الأطفال مجموعة من الأطفال شكلوا لبنة تلك الحلقة.



وهكذا بدأت الحلقة، فانعقدت مرة واحدة في الأسبوع، وأبدى ذلك الطفل من خلالها نشاطاً عجيباً في حفظ القرآن الكريم، والتزاماً مدهشاً في الحضور!

وأثناء الحلقة، كان الشاب ينتهز الفرصة لتقويم سلوك الطفل الذي كان دائم الحديث عن مغامراته وانتقاداته للآخرين، سواء كانوا كباراً أو صغاراً، فكان الشاب يستمع إليه بصبر وابتسام، ويحاول من خلال حواره معه أن يوجِّهه التوجيه الصحيح، بتسريب بعض القيم إليه، وتصحيح بعض المفاهيم، فهو يعلم أن الطفل المشاغب في العادة يحتاج إلى من يستمع إليه، ويحاول أن يعبر بشغبه وكثرة تحركاته عما يعجز عن التعبير عنه بلسانه؛ لذلك يحتاج إلى من يُشعره بأهميته، ويعزز ثقته بنفسه من خلال مدحه والثناء عليه، والتأكيد على أنه ليس طفلاً سيئاً، بل يمكن أن يفعل ما هو أفضل فينال تقدير الناس.

واستمرت تلك الحلقة ما شاء الله لها أن تستمر، وحفظ الطفل ورفقاؤه قرابة جزئين من القرآن الكريم، مصحوبين بجرعات مبسطة من الآداب والأخلاق.

ثم مرَّت السنوات، فانتقل ذلك الشاب إلى حي آخر، وعاد الطفل مع أبيه وأسرته ليستقر في مسقط رأسه في إحدى الولايات.

وفي أحد الأيام زار ذلك الشاب ذات المسجد الذي كان يرتاده قبل سنوات قبل أن ينتقل إلى حي آخر. وبعد الفراغ من الصلاة جاءه فتى في مقتبل العمر فسلَّم عليه باسمه، فتطلع إلى وجهه وقد دهش لهذا الفتى الذي يسلم عليه باسمه دون أن يتعرف عليه، كانت قامته تميل إلى الطول، وعلى وجهه الصبوح وهيئته سمات الالتزام وعلامات الصلاح، إنه يشعر أنه يعرف هذا الفتى، ولكن للوهلة الأولى لم تسعفه الذاكرة، ثم فجأة قفز اسمه إلى ذاكرته فسأله:

- فلان؟!

- نعم!



فعانقه في حرارة ثم قال:

- أتذكرني؟!

فقال الفتى مبتسماً:

- وكيف أنساكم؟!

فترقرقت الدموع في عيني الشاب، فقد كان الفتى الذي يقف أمامه هو ذات الطفل المشاغب الذي ملأ المسجد ضجيجاً وجلبة من قبل، وسأله وهو يحاول أن يتمالك نفسه حتى لا يبكي من الفرح:

- وأين تدرس؟

- أدرس في السنة الأولى في كلية الطب.

- اللهم بارك!

حينها ازداد ذلك الشاب يقيناً بأن البذور التي تُدفن في باطن الأرض لا بد أن تينع وتثمر يوماً، وأن التربية والتقويم يحتاجان إلى صبر وحكمة، وليس إلى فظاظة وقمع، لا كما فعل ذلك الرجل الذي منع أبناءه من المسجد؛ بحجة أن فيه ذلك الطفل المشاغب وأمثاله، فلم يبلغوا بذلك المنع ما بلغه ذلك الطفل المشاغب الذي لازم المسجد، فوجد من يوجهه الوجهة الصحيحة، فانتفع بحضوره، ليجمع بين خيري الدنيا والآخرة: الالتزام الديني والأخلاقي، والمركز الاجتماعي المرموق حين أصبح طالباً في كلية الطب؛ ففي حضور الطفل إلى المسجد خير في كل الأحوال، ومهما كان مشاغباً أو مزعجاً، فسيجد من يأخذ بيده، ويرشده إلى طريق الخير.

الاعتداء الجنسي على الأطفال: أبعاد أخرى

انشغل الرأي العام السوداني في الآونة الأخيرة بالحوادث المتكررة لظاهرة الاعتداء الجنسي على الأطفال، واتفقت أغلب الآراء على توقيع أقصى العقوبات على الجناة الذين انتهكوا براءة الطفولة، وخالفوا الفطرة السوية، وصادموا قيم الدين وأعراف المجتمع.

ولا مرية في أن اغتصاب الأطفال القاصرين من أشنع الجرائم، خاصة إن كان هؤلاء الأطفال في سن مبكرة جداً، على نحو ما حدث للطفلة مرام ذات الأربع سنوات التي اغتُصبت بوحشية، ثم ألقيت جثة هامدة في بئر السايفون!

وتكمن خطورة هذه الجريمة في الآثار السيئة التي تخلفها، مما ينعكس سلباً على الطفل وأسرته التي تتأثر بتأثره؛ من ذلك ما ذكره بعض الأطباء، مثل صعوبة النوم نتيجة الأرق والكوابيس، إضافة إلى اضطراب التحصيل الأكاديمي وعدم التركيز، ومشاكل الطاعة، علاوة على مشاكل التغذية الناتجة عن فقدان الشهية، إلى جانب الانطواء الذاتي، والانعزال عن الآخرين، والشعور بالمخاوف المتكررة.

والمعروف أن تنشئة الطفل لا تتم بصورة طبيعية سليمة إلا بإحاطته بالحماية الكاملة من الإساءة والاستغلال.

ولعل التنامي المطّرد لهذه الظاهرة دفع الكثرين لتقصي أسبابها، ومحاولة إيجاد الحلول الناجعة لها، لكن أغلب الآراء اتجهت إلى المطالبة بتوقيع أقصى العقوبات على مرتكبي هذه الجرائم - وهذا ما تحقق إلى حد كبير في قانون الطفل لعام ٢٠١٠م — بينما أغفلت كثير من النقاشات والمداولات جوانب وأبعاداً أخرى متعلقة بهذه الظاهرة.

والواقع يؤكد أن توقيع أقصى العقوبات وحده لا يكفي لحل المشكل حلاً جذرياً ومنع تكرار الجريمة؛ بدليل أن الاعتداء على الأطفال ما زال في تزايد مستمر، بالرغم من تشديد العقوبة إلى حد الإعدام.



وفي رأيي أن هذا الجريمة ينبغي ألا تؤخذ بمعزل عن أبعاد ثلاثة: البعد الاجتماعي، والتربوي، والشرعي.

فبالنظر إلى البعد الاجتماعي نجد أن التقارير تشير إلى أن ٨٠ % من حالات الاعتداء على الأطفال يتم التكتم عليها، و.٢٠% فقط هي التي يتم الإبلاغ عنها، وحتى المبلغ عنها تتدخل فيها أطراف من الذين يُعرفون بـ(الأجاويد) بغرض التستر عليها؛ وبالتالي لا تجد معظم القضايا حظها من التقديم للعدالة، فلا يتضح حجم المشكلة للرأي العام، وتكون المحصلة أن هذا التكتم يجرئ الجاني على معاودة ارتكابه للجريمة.

وأثبتت الدراسات أن أكثر الأسر عرضة للاعتداء الجنسي على أطفالها هي الأسر المفككة التي تعاني من النزاعات الزوجية، ويغيب لدى أفرادها الوازع الديني والانضباط الأخلاقي، أو تلك التي يسود الإهمال في تربيتها لأبنائها.

أما بالنسبة للبعد التربوي، فقد أُجريت تحقيقات واستطلاعات أثبتت أن من أسباب الاعتداء الجنسي على الأطفال الثياب غير المحتشمة التي تُلبِسُها بعض الأسر للصغيرات، باعتبارهن لم يبلغن سن البلوغ، دون مراعاة لتفاوتهن في أحجامهن ونموهن الجسدي! وهذه الملابس التي تعتبر خليعة إذا لبستها النساء تكون سبباً في تجرئة ضعاف النفوس على الاعتداء على هؤلاء الصغيرات.

وكثير من الأسر تترك الحبل على الغارب في تربية أبنائها، فيضحون فريسة للغزو الثقافي المتمثل في أجهزة الإعلام ومواقع الإنترنت، فيشاهدوا ما يشاؤون مما يثير الغرائز، دون رقابة أو توجيه؛ وهذا يجعلهم معتادين على رؤية التجاوزات الجنسية؛ وبالتالي يصبحون مهيئين لقبولها أو التجاوب معها.

وفي ما يتعلق بالبعد الشرعي، توضح الدراسات أن أغلب الأسر التي تتعرض للاعتداء الجنسي على أطفالها أسر تغيب لديها التنشئة الإسلامية السليمة، فلا يُهتم فيها بتعويد الأطفال على الصلاة والقيم والأخلاق الفاضلة المستمدة من سيرة النبي صلى الله



عليه وسلم وسلف الأمة الصالح، وتختفي فيها توعية الأبناء بأحكام الاستئذان وستر العورة، وبحدود التعامل مع غيرهم، فيُستغل هؤلاء الأطفال؛ لجهلهم بما هو محرم وما هو مباح في التعامل مع الآخرين.

وقد سئل الشيخ محمد سيد حاج رحمه الله في تحقيق أجرته مجلة (صحتك) عن العلاج من وجهة النظر الشرعية فقال: في رأيي أن العلاج يكمن في اتجاهين: الاتجاه الأول: إعلاء القيم الإسلامية، وتعزيز التربية الإيمانية، ونشر الخوف من الله عزَّ وجلَّ، والأخذ بالآداب الإسلامية التي تمنع كل ما يثير الغرائز الجنسية، كالاختلاط والنظر إلى العاريات والخلوة بالأجنبية، وكل ما من شأنه أن يفسد الأخلاق. والاتجاه الثاني: تنفيذ الأحكام والعقوبات الشرعية والحدود المقررة شرعاً على من ارتكب هذا الجرم.

كما جاء في خلاصة التحقيق الذي أجرته المجلة: (عليه يجب أن تتكامل الأدوار لحماية الطفل من الاعتداءات المتكررة، ابتداءً من دور الأبوين اللذين يناط بهما توعية أبنائهم ومراقبة تصرفاتهم وسلوكياتهم والأشخاص الذين يصحبونهم أو يلتفون حولهم. كما يجب على الأسرة حماية الأبناء من التعرض للصور الفاضحة والعارية التي تعرض في أجهزة الإعلام وغيرها؛ مما يؤثر سلباً على نفسية الطفل الذي يحتاج إلى الشعور بالأمان والاستقرار في هذه المرحلة بالذات. وتلافياً لأي احتمال للتعرض للاعتداء الجنسي، يجب على الأبوين تعويد الطفلة على الاحتشام منذ صغرها؛ حتى لا تقع فريسة للذئاب البشرية.

كما يجب على المسؤولين وأهل القانون أن يعملوا على توقيع أقصى العقوبات للحيلولة دون وقوع مثل هذه الظاهرة الشاذة والدخيلة على قيمنا وأعرافنا، ويتكامل الدور بالأئمة والدعاة والأطباء النفسيين والمتخصصين في علم الاجتماع وعلم النفس لتوعية المجتمع بالمخاطر التي تترتب على ظاهرة الاعتداء الجنسي على الأطفال، وتذكيره بالعواقب الدينية والاجتماعية والنفسية التي تنجم عن هذه الجريمة النكراء).



وفي رأينا أنه ينبغي أن تعد جريمة الاعتداء الجنسي على الأطفال حقاً عاماً لا يمكن التنازل عنه بتدخل الأجاويد أو الوساطات؛ حتى يُردع الجاني ويُزجَر غيره عن ارتكاب مثل هذه الجرائم التي تصادم الشريعة، وتنافي الفطرة.



حين تصبح البيوت أوهى من بيت العنكبوت..!!

قال الأب لذلك الشاب الذي تقدم لخطبة ابنته:

- سأسألك سؤالاً واحداً؛ إن أجبت عنه، فسوف أزوجك ابنتي، ولن أطلب منك شيئاً.

فقال الشاب الذي دُهش لهذا السؤال الذي سيجعله يتزوج دون الحاجة إلى أن يكلِّف نفسه مالاً أو متاعاً:

- وما هو هذا السؤال؟!

- في أي وقت تحين صلاة الصبح؟

فارتبك الشاب، ولم يحر جواباً!

كان السؤال على بساطته صعب الإجابة بالنسبة إليه؛ فقد كان من الذين ينامون عن صلاة الصبح، فلا يصلونها حتى تشرق الشمس؛ فكانت النتيجة أن خسر تلك الزيجة!

في أغلب الأحيان تكون الأسئلة التي تُطرح على الشباب الذين يتقدمون للزواج من شاكلة: ما هي قبيلتك؟ أين تعمل؟ أين ستسكن؟ هل لديك بيت مِلْك أم ستؤجر؟ أين تعرفت عليها؟ هل أنت جاهز لتحمُّل الزواج والقيام بمسؤولياته؟ (يعنون النواحي المادية في المقام الأول).

وتغيب أسئلة مثل: هل تداوم على الصلوات الخمس في المسجد؟ كم جزءاً تحفظ من القرآن الكريم؟ إلى من تستمع من العلماء والمشايخ؟

هناك من يزوِّج لابنته دون أن يسأل عن المتقدِّم للزواج من النواحي الخُلقية، فيكفي أنه من أسرة عريقة، ووضعه المادي يسمح له بفتح بيت، ولكن مثل هذا البيت



الواهي – الذي يفوق في ضعفه بيت العنكبوت – سرعان ما تسوده المشكلات والخلافات، التي قد تصل إلى حد الشتم والضرب والإهانة؛ وكل ذلك مبعثه ضعف الوازع الديني لدى الزوج الذي يجهل واجباته الزوجية، ويسيئ معاملة الزوجة، ولا يخشى الله في مسؤوليته تجاه بيته، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها**)[1].

فتكون النهاية في مثل هذه الحالة أن تتحول الحياة الزوجية من (سكن) و(مودة) و(رحمة) كما وصفها القرآن الكريم إلى سلسلة من الخلافات والمشادات المتكررة التي تنتهي في الغالب بفض عقد الزوجية؛ ودوننا الإحصاءات التي تبيِّن أن نسبة الطلاق قد تصل زهاء ٤٠% من حالات الزواج، بل في بعض المجتمعات قد تصل النسبة إلى ٥٠%!

ويشكل سوء الاختيار أحد أهم الأسباب التي تؤدي إلى الطلاق، إلى جانب الأسباب الأخرى، مثل غياب الوازع الديني، وسوء الخُلق، والجهل بالحقوق والواجبات الزوجية من كلا الزوجين أو أحدهما، وغير ذلك من الأسباب. وقد تكون هذه الأسباب نتيجة طبيعية وحتمية وبديهية لسوء الاختيار.

فكم من شابة استعجل أهلها في تزويجها دون أن يدققوا السؤال عن المتقدم لها، فيعرفوا: هل هو على قدر من التدين أم لا، وما هي أخلاقه وسمعته بين الناس، ومن يصاحب، إلى غير ذلك من الأسئلة المهمة، فتكتشف الزوجة المسكينة بعد فوات الأوان أن زوجها لا يصلي، أو يتهاون في أمر الصلاة، أو يعاقر الخمر، أو يصاحب أصدقاء السوء، أو له علاقات مشبوهة مع النساء، أو يشاهد الأفلام والصور الإباحية، أو سيء الخلق، أو له هذه الصفات مجتمعة أو بعضها!

وفي المقابل، يتزوج بعض الشباب وقد بنوا اختيارهم على أساس الجمال، أو على شرف ورفعة الأسرة التي تنتمي إليها الزوجة، أو على أساس ثرائها. وهنا، تستحيل – في

---

[1] رواه البخاري برقم (1996).



كثير من الأحيان – نعمة الجمال إلى نقمة حين يكتشف الشاب أن زوجته سيئة الخلق، وتنقلب منحة الشرف والرفعة إلى محنة حين يفاجأ بأن زوجته تفرِّط في واجباتها الزوجية ولا تضع له اعتباراً! وتتبدل مَزِيَّة الثراء إلى رَزِيَّة حين يجد أن زوجته هشة التدين، فلا تقيم وزناً لصلاة ولا صيام!

إن الإسلام قد منحنا المعايير المثلى التي تختار بها الأسرة المتقدِّم للزواج بابنتها، فوضَّح للأسرة أن المعيار الحقيقي هو الدين والخلق، فالدين يمثل علاقة الإنسان بربه، والخلق يمثل علاقته بالناس، قال رسول صلى الله عليه وسلم: (إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)[1].

كما وضع الإسلام المعايير التي يختار بها الشاب شريكة حياته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك)[2].

إن رباط الزوجية هو رباط قوي، وميثاق غليظ، فينبغي أن تُراعى حقوقه وواجباته من الزوج والزوجة على السواء؛ حتى تستقر الحياة الزوجية، فتؤتي أكلها الذي ينعم به المجتمع أمناً، واستقراراً، وطمأنينة.

[1] رواه الترمذي برقم (١/٢٠١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٢٢).

[2] متفق عليه.





مرافئ الهمم
وشرفات القمم

حين تغيب الأهداف وتتقاصر الهمم..!!

استحييت من نفسي حين قرأت سيرة الدكتور راغب السرجاني المشرف العام على موقع قصة الإسلام على الإنترنت (www.islamstory.com)، وسخرت بمرارة من مقولة الكثيرين: (زمن ما في)!

الدكتور راغب السرجاني: من مواليد عام ١٩٦٤م بمصر، وتخرَّج في كلية الطب جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٨٨م، أتمَّ حفظ القرآن الكريم عام ١٩٩١م، ثم نال درجة الماجستير عام ١٩٩٢م من جامعة القاهرة بتقدير امتياز، ثم الدكتوراه بإشراف مشترك بين مصر وأمريكا عام ١٩٩٨م (في جراحة المسالك البولية والكلى). وبالرغم من عمله أستاذاً بكلية الطب جامعة القاهرة، ورئيساً لمجلس إدارة مركز الحضارة للدراسات التاريخية بالقاهرة، ومشرفاً عاماً لموقع قصة الإسلام الذي يعد أكبر موقع للتاريخ الإسلامي على الإنترنت؛ بالرغم من ذلك كله استطاع أن يؤلف أكثر من ٥٠ كتاباً في مختلف المواضيع التي تتناول تاريخ المسلمين وواقعهم بأسلوب بديع وتحليل عميق ممتع!

وليس هذا نهاية المطاف، فالدكتور راغب السرجاني يقدم عدة برامج وحوارات على الفضائيات والإذاعات المختلفة؛ منها: اقرأ، الرسالة، الحوار، الناس، القدس، المستقبل، العربية، الجزيرة، الجزيرة مباشر، والسودان، وإذاعة أم القوين، وإذاعات القرآن الكريم بفلسطين والأردن ولبنان والسودان والإمارات، وغيرها، وله مئات المحاضرات والأشرطة الإسلامية؛ يتحدث فيها عن السيرة النبوية والصحابة، وتاريخ الأندلس، وقصة التتار، وغير ذلك.

ينبغي أن نخجل من أنفسنا، ونستحي حين نردد هذه المقولة الممجوجة (زمن مافي)!، هذه المقولة التي منعتنا من اكتشاف إبداعاتنا وتفجير الطاقات الكامنة في



نفوسنا، فليست المشكلة في قلة الوقت بل قلة البركة؛ لأن الأوقات تُهدر فيما لا فائدة فيه ولا طائل من ورائه؛ والزمن متاح بما يكفي، ولكن المحك هو: كيف يُنفق، وفيمَ يُنفق.

إذا التقيت بأحد الأصدقاء فدعوته إلى محاضرة أو درس أو قراءة كتاب، أو سألته عن السبب في عدم مواصلته للدراسة العليا، أو غيرها من الأسئلة التي تدور في فلك الاستفادة من الزمن، يجيب بأن لا زمن، أو يتعذر بالانشغال بالمعايش؛ وهي في مجملها إجابات تدل على دُنُوِّ الهمة وفقدان بوصلة الأهداف في صحراء الحياة!

وإذا نظرت في حياة هؤلاء الذين يتحججون بضيق الوقت، تجد أوقاتاً تضيع في المواصلات دون قراءة كتاب أو الاستماع إلى مادة مفيدة، أو تُهدر في المجاملات المفرطة ومجالس الغيبة والنميمة والإكثار من المباحات؛ حتى ابتدع بعضنا عبارة (تكسير الزمن!)؛ ليدل على مدى الفراغ، وانحطاط الهمم، وغياب الأهداف في حياتنا!

والناظر في السيرة الذاتية للدكتور السرجاني وكثير ممن حققوا نتائج مبهرة في عمر قصير، بل وتنوع عطاؤهم في مجالات متعددة نراها نحن أحياناً مجالات متناقضة – كما في حالة السرجاني الذي تنوع عطاؤه بين التاريخ الإسلامي والطب – كثير من هؤلاء ما كان لهم أن يحققوا هذه النتائج المذهلة لولا حسن استخدامهم واستغلالهم للوقت، فضلاً عن همتهم العالية التي ترفعت عن توافه الأمور إلى عظائمها ومعاليها.

أما حياتنا فيغلب عليها التخبط، وعدم التنظيم والتخطيط سمة بارزة في تعاطينا مع الوقت؛ فأمورنا تسير كيفما اتفق، أو (بالبركة) كما يقولون!

وفي المقابل ضرب سلفنا رضوان الله عليم أروع الأمثلة في العناية بالوقت والحرص على استغلاله أمثل استغلال في طاعة الله والاستزادة من الحسنات؛ فكانوا يعدُّون الوقت ثروة لا تقدر بثمن، وكما قال الحسن البصري رحمه الله: (يا ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك). ولله درُّ القائل:

إنا لنفــرح بالأيـــام نقطعهـــا   وكلُّ يومٍ مضى يُدني من الأجل

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً فإنما الربح والخسران في العملِ

وقد أثبتت دراسة أن النتائج التي يحصل عليها الذين يخططون لحياتهم تفوق أضعاف ما يحصل عليه الذين يعيشون حياتهم دون تخطيط، بينما يحصل الذين يخططون لحياتهم بخطط مكتوبة أضعاف ما يحصل عليه الذين يخططون لحياتهم دون كتابة؛ لأن من يخطط لحياته بخطة مكتوبة يتمثل الأهداف التي يودُّ تحقيقها في فترة زمنية محددة، ويستصحب الرؤية والرسالة والوسائل التي يطلع عليها من حين لآخر.

وفي ذات الوقت، حين يغيب علو الهمة تتعلق النفوس بالماديات واللهث خلف الدنيا الفانية، وليتنا نحصل على هذه الدنيا التي تُشابه هِمَّتنا الدنيّة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (**مَنْ كَانَ هَمُّهُ الآخِرَةَ، جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الدُّنْيَا، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ**)[1].

من يقرأ سيرة الدكتور راغب السرجاني وغيره من الذين نقشوا أسماءهم بأحرف بارزة في تاريخ الإنسانية يجد نفسه أمام قامات سامقة، ناطحت الثريا بهمتها العالية وحسن استغلالها للعمر القصير الزائل، وآثرت أن تكون أداة فاعلة للتغيير الإيجابي في تاريخ الأمة، بدلاً من أن تكون من الذين تستوي حياتهم ومماتهم، بل قد يكون موتهم تخفيفاً ورحمة على حد قول الشاعر:

وموتُ العـــادل الملكِ المرَجَّـى حكيمِ الحـقِّ منقصَةٌ ووصمَـةْ

وموتُ الصـــالح المرضيِّ نقصٌ ففي مَـرآهُ للإســلامِ نَسـمَةْ

وموتُ الفارسِ الضِّرغامِ ضَعفٌ فكم شُهِدتْ له في النَّصرِ عَزْمَة

وموتُ فتىً كثيرِ الجـــودِ مَحْـلٌ فإنَّ بقــاءهُ خِصــبٌ ونِعمَــةْ

فحسبُك خمسة تبكي عليهمْ ومــوتُ الغيرِ تخفيفٌ وَرَحمَــةْ

---

[1] رواه أحمد برقم (٥ / ١٨٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٠٤).



أوقاتنا بين معالي الأمور وسفسافها

من خلال معرفتي بكثير من الناس وخبرتي بهم، أيقنت أن علو الهمة وعزائم الأمور سلعة نادرة، قل أن يمتلكها الكثيرون، إلا من رحم ربي.

وقد شاركت في برنامج امتد إلى عدة سنوات، فكان يمرُّ علينا فيه مئات الشباب، ولكنَّ أغلبهم كان يستمر أسابيع قليلة أو أشهر معدودة، ثم يغيب؛ فتلتقي به فيتعذر لك عن غيابه بمختلف الحجج والأعذار الواهية، ولعله يذكر كل شيء عدا ضعف همته وقلة عزيمته. وفيهم شباب نحسبهم من الأخيار، ولكنهم في مضمار علو الهمة أصفار، ولكنها أصفار لا تضاف إلى أعداد، بل تظل على حالها أصفاراً لا قيمة لها، أو أرقاماً صغيرة على أقل تقدير!

وكان أن ثبت في هذا البرنامج حتى أكمله قلة من الشباب، لا تتعدى أصابع اليدين، حين أعلوا من هممهم، وأدركوا قيمة الوقت وأهميته!

وذكرتني هذه التجربة بحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: (**إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**)[1]. قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: (قَالُوا الرَّاحِلَةُ هِيَ الْبَعِيرُ الْكَامِلُ الْأَوْصَافِ الْحَسَنُ الْمَنْظَرِ، الْقَوِيُّ عَلَى الْأَحْمَالِ وَالْأَسْفَارِ، سُمِّيَتْ رَاحِلَةً؛ لِأَنَّهَا الطَّوَّلُ؛ أَيْ يُجْعَلُ عَلَيْهَا الرَّحْلُ، فَهِيَ فَاعِلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ، كَعِيشَةٍ رَاضِيَةٍ؛ أَيْ مَرْضِيَّةٍ وَنَظَائِرِهِ، وَالْمَعْنَى: الْمَرْضِيُّ الْأَحْوَالِ مِنْ النَّاسِ الْكَامِلُ الْأَوْصَافِ قَلِيلٌ فِيهِمْ جِدًّا كَقِلَّةِ الرَّاحِلَةِ فِي الْإِبِلِ). وهذا واقع مشاهد، فقلة من الناس هي التي يُعتمد عليها في معالي الأمور، حتى لا تكاد تجد في كل مائة مَنْ يكون أهلاً لتحمل المسؤولية والتصدي للمهام الصعبة، مثلما يصعب أن تجد في مائة من الإبل ما تحمل عليه متاعك.

---

[1] رواه البخاري برقم (6498)، ومسلم برقم (٢٥٤٧).

وضعف العزيمة هو الذي يجعل كثيراً من الناس يضيعون أوقاتهم في ما لا طائل من ورائه، زعماً بأنهم يقتلون الوقت ويملؤون أوقات الفراغ، وما دروا بأنهم يقتلون أنفسهم بقتلهم الوقت الذي يعد رأسمالهم الحقيقي في هذه الحياة الدنيا، فإذا فقدوا رأس المال فقد بارت تجارتهم، وفقدوا بذلك رصيدهم في الدنيا والآخرة، عياذاً بالله تعالى!

وقد كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أضن الناس بأوقاتهم، ويكرهون إضاعة الوقت والفراغ، حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إني لأرى الرجل فيعجبني، فإذا سألت عنه فقيل لا حرفة له، سقط من عيني)، وقال أيضًا: (إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللًا (أي فارغًا) لا في عمل دنيا، ولا في عمل الآخرة)، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إني لأبغض الرجل أن أراه فارغًا، ليس في شيء من عمل الدنيا، ولا عمل الآخرة). وقال بعض السلف: (من أمضى يوماً من عمره في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو مجد أثله، أو حمد حصله، أو خير أسسه أو علم اقتبسه؛ فقد عقَّ يومه وظلم نفسه)، وقال آخر: (المؤمن إذا فرغ غفل)؛ أي: إذا أصبح المؤمن فارغاً صار غافلاً.

ومما يحز في النفس أن الفراغ والكسل وضعف الهمة والركون للإحباط واليأس وجلد الذات صارت سمات بارزة في مجتمعاتنا، فشوارعنا وبيوتنا ملأى بالمتعطلين والمتبطلين الذين يزهقون أوقاتهم في سفاسف الأمور، في أحاديث وأسمار وألعاب لا نفع فيها، وفي مشاهدة ما لا يغني ولا يضيف إليهم شيئاً، ولا أدل على ذلك من انتشار ظاهرة (ستات الشاي)، وما يصحبها من إضاعة الشباب للساعات الطوال بشكل يومي وهم يجلسون زرافات ووحداناً أمام بائعات الشاي، يرتشفون الشاي والقهوة، ويتجاذبون أطراف الحديث الفارغ! وتمر بأمثال هؤلاء فيحضرك قول الشاعر محمد سعيد العباسي:

فما بي ظمأٌ لهذي الكؤوسِ فطوفي بغيري يا ساقيه
على نفرٍ ما أرى همهم كهمي ولا شأنهم شانيه
طلبتُ الحياة كما أشتهي وهم لبسوها على ماهيه
شروا بالهوان وعيش الأذل ما استمرؤوا من يدِ الطاهيه
فباتوا يجرُّون ضافي الدِمقس وبِتُّ أُجَرْجِرُ أسماليه

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهمية الوقت وغفلة كثير من الناس عن إدراك هذه الأهمية القصوى، حيث قال: (**نعمتانِ مغْبُونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصِّحَّة والفراغ**)[1].

وفي المقابل قلَّ من يشتغل بالأمور المهمة: كالقراءة في الموضوعات المفيدة، والانخراط في العمل الدعوي والخيري والمهن المجدية، وإنجاز وتطوير المشروعات والبرامج التي تعلي مكانة الأمة في سلم الحضارة والرقي. والدين الإسلامي يريد لنا أن نشتغل بمعالي الأمور، ويشحذ هممنا نحو السمو والرفعة، ويحذرنا من الاشتغال بالتوافه والسفاسف، وفي ذلك يقول رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا**)[2].

إذا كان الوقت رأسمال الإنسان كما أسلفنا، فإن العاقل الكيِّس هو من يتألم إذا أضاع لحظة واحدة دون أن تكون في طاعة الله جلَّ وعلا، فإن جميع من في الأرض لا يستطيعون إعادة عقارب الساعة إلى الوراء واسترجاع دقيقة واحدة راحت هدراً!

[1] رواه البخاري برقم (٦٤١٢).

[2] رواه الطبراني برقم (٢١٤/٣)، وصححه الألباني.

وتبغي بعد ذاك لِحاقِي؟!

قال أحد المشايخ الأفاضل: هناك أمران إذا سلم منهما الإنسان فإنه يستطيع أن يحقق كل أهدافه: الكسل والفوضى.

كثير من الناس – إلا من رحم ربي – يدور بين فلكي الكسل والفوضى اللذين يعتبران أكبر مهددين للوقت ومهدرين له، مع كونه من أعز ما يملكه الإنسان و(إذا مضى وقتك فقد مضى بعضك) كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى.

قد تجد إنساناً طموحاً، وله مقدرات فائقة ومهارات متعددة، وفوق ذلك كله همة عالية، ولكنه يفتقد إلى تنظيم وقته، وترتيب أولوياته، فيبذل جهوداً مضنية، ومع ذلك يحقق نتائج واهية، حين ضربت الفوضى بأطنابها في حياته!

وفي المقابل تجد من ينظم وقته، ويرتب أولوياته وفق خطط وبرامج معينة، ولكنه ابتُلي بالكسل والتواكل والإحباط، فيظل ما خططه لنفسه حبيس الأدراج والأضابير، ومجرد حبر على ورق!

أما من جمع بين الشرين: الكسل والفوضى، فلا يرجى منه شيء؛ إذ لا معنى لحياته؛ لأن قيمة المرء تقدر بما يحسنه وما يطلبه، وما دام غارقاً في الكسل والفوضى، فهو لن يحسن بكسله شيئاً سوى النوم والراحة، ولن يحقق بفوضاه أمراً غير التخبط والفشل، وسيظل أسير الأماني العذبة والأحلام الوردية! ليكون شأنه شأن من قال فيه الشاعر:

نتمنَّى وفي التمنِّي شقاءُ ... ونناجي يا ليت كانـوا وكنَّا

ونصلِّي في سرنا للأماني ... والأماني في الجهر يسخرْنَ منَّا

غير أني وقد كرهتُ التمنِّي ... أتمنَّى لو كنتُ لا أتمنّى



الهمة العالية وتنظيم الوقت وفق أهداف معينة تظل دائماً في دائرة الاهتمام، هما الفيصل في وضع الفوارق ورسم الفواصل بين الناس، وبمرور الزمن تبدأ تلك الفوارق والفواصل في التشكل والاتساع.

وإذا أردت مثالاً حياً فانظر إلى أبناء الدفعة الواحدة بعد عشر سنوات من إكمالهم المرحلة الثانوية: ستجد البون شاسعاً بينهم، فقد تجد من تخرج في جامعة عريقة والتحق بوظيفة مرموقة في مقابل من ترك الدراسة وعمل في مهنة هامشية، وقد تجد الفارق كبيراً بين من تميز في تخصصه وصار رقماً لا يمكن تجاوزه، وبين من خلا تخصصه من الإبداع والتميز والتطوير، وظل أسير الروتين والجمود والتبلد. وحتى على نطاق الحياة الاجتماعية تتضح الفوارق بين من تزوج في سن مبكرة، وبين من ظل عازباً حتى سن متأخرة، ونحو ذلك من الفوارق الكثيرة.

فرق شاسع بين من يصل الليل بالنهار لتحقيق أهدافه المحددة، ويطوِّر نفسه، فيقرأ ويثابر في مجاله وفق جدول زمني محدد وخطة عملية مدروسة، وبين من يظل حبيس الكسل والخمول والأماني الكاذبة والفوضى.

(الكسول مخذول)، و(النائم هائم)، و(من استراح راح)، و(من كد وجد)، (ولكل مجتهد نصيب)، و(على قدر أهل العزم تأتي العزائم)، كلها حكم وأمثال نحفظها عن ظهر قلب، ولكن الذين يعملون بمقتضاها قلة نادرة.

العظماء المعروفون على مدى التاريخ الإنساني في كل المجالات ما كانوا أهل راحة ولا دعة ولا نوم، بل كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون؛ في قلق دائم وحساسية عالية، يروضون أنفسهم ويملكون زمامها، ويبذلون قصارى جهدهم وفق منهاج محدد وطريق معلوم، وإذا نظرت في سيرهم لوجدت أن عدد الساعات التي ينامونها لا تتجاوز أربع ساعات أو خمس. ولله درُّ من قال:

كُلَّ يَوْمٍ لكَ احْتِمالٌ جَديدٌ   ومَسيرٌ للمَجْدِ فيهِ مُقامُ



وإذا كانَتِ النّفُوسُ كِباراً   تَعِبَتْ في مُرادِها الأجْسامُ

وكَذا تَطْلُعُ البُدورُ عَلَيْنَا   وكَذا تَقْلَقُ البُحورُ العِظامُ

الذي يظن أنه سيحقق أهدافه، وينال مبتغاه براحة الجسد، ودون تخطيط أو تنظيم؛ هو بلا شك واهم حالم، فشتان بين من ينام ويسهر، ومن يقرأ ولا يقرأ، ومن ينظم وقته، ومن يتعامل بردود الأفعال كيفما اتفق. وتعجبني أبيات منسوبة إلى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى تقول:

سهري لتنقيح العلوم ألذ لِيَ   من وصل غانيةٍ وطيب عناقِ

وتمايلي طرباً لحل عويصةٍ   في الدرس أشهى من مدامة ساقِ

أأبيتُ سهران الدجى وتبيتُه   نوماً وتبغي بعد ذاك لِحاقِي؟!

ومما يدعو للأسف أن تجد الإنسان الثقة صاحب الغايات الكبرى أسير الكسل والخمول والإحباط، ولله در الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال: (عجبت لعجز الثقة وجلد الفاجر).

نحن بحاجة لإعادة النظر في تنظيم أوقاتنا وتحديد أهدافنا، كما أننا بحاجة إلى شحذ هممنا وتوجيهها نحو المعالي والغايات المنشودة؛ حتى تضفي على حياتنا معنى وقيمة.

ثقافة الذروة..!!

الطلاب عندنا يقرؤون عندما توشك الامتحانات أن تدخل من الأبواب، ويقول البعض إن رمضان – أو العيد – قد فاجأنا؛ ولا يبدأ كثير منا في الاستعداد للصلاة إلا عند سماع الإقامة!

ويقول البعض (زمنّا فارق)؛ أي أننا مفطورون على التأخير الذي لا مناص منه، وهذا القول بالطبع لا يغني من الحق شيئاً؛ لأن هذا التبرير مجرد (شمّاعة) يعلق عليها البعض تقصيرهم وعدم جديتهم، فالله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهداه النجدين، فعرّفه الخير والشر، وترك له حرية الاختيار بين الهدى والضلال.

مما يؤسف له أننا لا ننتبه لكثير من الأشياء إلا بعد فوات الأوان.. حين يبلغ الأمر ذروته. ويحضرني في هذا الصدد القول المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إذا حان وقت الشيء فقد فات أوانه)؛ أي إذا فُعل الشيء في وقته فليست هنالك وسيلة لتدارك الأخطاء، فمن يتحرك للامتحان مثلاً بحجة أن يصل في الوقت المحدد بالضبط، فقد يتعرض لطارىء يؤخره، فلا يستطيع تدارك الأمر؛ وبذا يكون الامتحان قد فاته؛ ومن يذهب إلى الطبيب بعد استفحال المرض فقد لا يجدي معه العلاج.

مشكلتنا هي أننا في كل قضايانا المهمة والحساسة نتعامل (بثقافة الذروة) – أو سمِّها (أدب الزنقة) إذا شئت – إن كان للزنقة أدب؛ فنحن لا نتدخل إلا حين تكاد الأمور تفلت من أيدينا، وكذلك قس على ذلك كل قضايانا المعاصرة؛ فدارفور لا يأبه بها أولو الأمر حتى تصبح قضية كبرى وتُدوَّل على أكبر نطاق؛ ولا نعير بوادر التمرد اهتماماً حتى تصبح حركات تحمل السلاح لتنتزع حقوقها بمنطق القوة؛ ولا ننتبه للأمراض مثل

الإيدز والملاريا والسحائي والإسهال المائي (الكوليرا) حتى يسقط الآلاف فريسة لها؛ ولا نستعد لفصل الخريف حتى تكون الشوارع قد غرقت في الأوحال والمستنقعات!

وعندما تظهر بادرة مشكلة ما نتلذذ بإضاعة الوقت والتواكل والكسل، حتى تقع المصائب؛ فنعض أيدينا من الندم، وتذهب أنفسنا حسرات على ما أضعناه من وقت ثمين لا يعود؛ و(إذا مضى يومك فقد مضى بعضك). وقل أن تجد لأحدنا خطة يعالج بها مشكلاته على المدى القريب أو البعيد؛ والتخبط والتردد يغمر كل حياتنا التي لا تخضع لنظام واضح أو قانون ثابت!

إنه نداء مشفق لنا لنراجع مواقفنا من الزمن، قياساً بما تواجهنا من مشكلات.. دعوة لاتخاذ مواقف أكثر جدية، وإعادة ترتيب أرفف حياتنا المبعثرة؛ لننعم بحياة مطمئنة هادئة، ونكون قد قمنا بواجبنا على الأقل؛ فيكون لنا العذر إذا لم نوفق؛لأن التوفيق من الله عزَّ وجلَّ، بدلاً من تطبيق (ثقافة الذروة).

(زنقة) من نوع آخر..!!

(الزنقة) التي أعنيها هنا ليست (زنقة القذافي) التي كانت مثاراً للتندر والسخرية، ولكن (الزنقة) التي نعني بها في عاميتنا السودانية الضغط والانشغال الاضطراري الذي ينجم عن الاستعداد لحدث مهم في حياتنا أوشك أوانه، مثل الاستعداد للأعياد والمناسبات والامتحانات، هي باختصار يمكن أن نطلق عليها (حالة طوارئ).

حقيقةً – وعن تجربة – تظهر للإنسان طاقات عجيبة في هذه (الزنقات)، ويبذل فيها جهوداً خرافية، مضاعفة عما كان يبذله في الأيام العادية، فيصل الليل بالنهار، ويستفرغ وسعه في تحقيق المهام الموكلة إليه قبل حلول الموعد المقرر.

في وقفة عيدي الفطر والأضحي – على سبيل المثال – يساهر الناس حتى الصباح في صيانة المنازل وشراء مستلزماتهم، وحين تقترب مناسبة زواج للأسرة تقف الأسرة كلها على قلب واحد وساق واحدة، وتتصاعد أنفاسهم وهم يعدون العُدَّة دون كلل أو ملل!

وقبل الامتحانات وأثنائها قد يقرأ الطالب مئات الصفحات في فترة وجيزة جداً لا تتجاوز الشهر، حتى يحار في نفسه بعد انقضاء تلك الفترة: كيف قرأ كل هذه الصفحات؟! ومن أين واتته العزيمة التي لا تلين!

الفرق بيننا وبين العظماء والعباقرة أن كل أيامهم (زنقات)، تتفجر فيها طاقاتهم الكامنة، بينما نحن لا نعرف (الزنقات) إلا في المناسبات والأعياد وحالات الطوارئ، هم عظماء وعباقرة؛ لأنهم اكتشفوا طاقاتهم الكامنة، أما نحن ف(عاديون) لم نكتشف ذواتنا بعد، ولم نستغل من طاقاتنا أكثر من ٢٠٪ كما تشير بعض البحوث والدراسات، مع العلم بأن العبقرية تسعة أعشارها مكتسب وعُشْر واحد فقط منها يمثل الجانب الموروث!



إننا حقاً بحاجة إلى أن نكتشف ذاتنا ونفجر طاقاتنا الكامنة، بكل أنواعها، سواء كانت طاقة معنوية كالعزيمة والإصرار، وسواء كانت طاقة حسية كالعمل والمثابرة، أو طاقة فكرية كالعصف الذهني والتفكر.

علينا أن نختار بين أن نكون مؤثرين في تاريخ أمتنا، وبين أن نكون ضمن الغثاء الذي تنبأ به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)[1].

وأعجبتني مقالة للشيخ كمال الزنادي حفظه الله يقول فيها: (علينا أن نختار بين أن نحمل هم الدعوة إلى الله تعالى، وبين أن تحمل الدعوة همنا).

وصدق المتنبي حين قال:

على قدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدْرِ الكرامِ المكارمُ
فتعظُمُ في عين الصَّغيرِ صغارُها ... وتصغر في عين العظيمِ العظائمُ

وحين قال:

وإذا كانَتِ النّفُوسُ كِباراً ... تَعِبَتْ في مُرادِها الأجْسامُ
وكَذا تَطْلُعُ البُدورُ عَلَيْنَا ... وكَذا تَقْلَقُ البُحورُ العِظامُ

[1] (السلسلة الصحيحة: رقم ٩٥٨).



العزاء وتناول الإفطار في مؤسساتنا

لو كنت رئيساً للسودان لأوقفت العزاء أثناء ساعات العمل الرسمية، ولمنعت تناول وجبة الإفطار أثناء الدوام الرسمي!

أكثر ما يستغرق وقت أعمالنا اليوم ويعطل مصالح العباد هو الذهاب إلى المآتم وتناول وجبة الإفطار، ويليهما شرب الشاي وقراءة الصحف اليومية وعيادة المرضى، وهذا مشاهد في مؤسساتنا، ولا سيما الحكومية منها!

ولا غرو أن تزور مؤسسة ما فتجد معظم العاملين قد خرجوا زرافات ووحداناً — رؤساء ومرؤوسين — للعزاء في وفاة والد أو والدة زميلهم أو زميلتهم، فلا تملك سوى أن تكظم غيظك، لتعاود اليوم الثاني فتجد الموظفين قد ذهبوا لتناول وجبة الإفطار التي قد تستغرق ساعة أو ساعتين؛ إذ يتخللها تجاذب أطراف الحديث مع الزملاء والزميلات في السياسة والأدب والفن وكرة القدم، ثم الشاي وقراءة الصحف، ثم التجشؤ ومط الظهر والاتكاء قليلاً، ثم العودة إلى المكتب بخطوات متثاقلة!

لا أحد يمانع من تعزية المسلم لأخيه المسلم أو عيادته للمريض؛ فكلها من أعمال الخير التي حض عليها ديننا الحنيف، ولا يعترض على تناول الموظف للإفطار، أو شربه للشاي، أو حديثه مع زملائه في ما دعت إليه الحاجة، ولكن هذه الأعمال جميعاً تُعد مستحبات ومباحات إذا ما قورنت بالعمل الذي نتقاضى عليه أجراً و(من أخذ الأجر حاسبه الله بالعمل).

لديَّ شقيق يعمل في إحدى المنظمات الإقليمية التي تعيِّن مديراً عربياً كل عدة سنوات، وحين جاء دور أحد المديرين من إحدى الدول العربية، كان شأنه مغايراً لمن سبقوه، وأحدث إجراءات كانت هي الأولى من نوعها؛ بغية تجويد العمل وزيادة الإنتاج، ولكنها قوبلت بسخط الموظفين وتذمرهم، بطبيعة المقاومة التي تُجابه كل تغيير وتجديد،



ولكنهم بالطبع لم يعلنوا ضجرهم صراحة؛ خوفاً على مناصبهم من بطش ذلك المدير الصارم!

أول مافعله ذلك المدير الجديد أن أوقف الخروج أثناء ساعات العمل الرسمية، ومنع الزيارات للموظفين داخل المكاتب، باستثناء زيارات العمل، كما قام بإغلاق الكافتيريا، وخيّر الموظفين بين الإفطار في بيوتهم قبل بداية الدوام وبين إحضار سندوتشات يتناولونها أثناء أدائهم لمهامهم الوظيفية!

وكان مبرر ذلك المدير أن الموظف يستغرق أحياناً عدة ساعات للمشاركة في عزاء أحد المتوفَّين، مع أن بإمكانه أن يزوره بعد ساعات الدوام، كما يستغرق يومياً ساعة أو يزيد في تناول وجبة الإفطار!

ومن ثم فصل ذلك المدير بعض الموظفين حين وجد أنهم يشكلون عطالة مقنعة، وأن لا حاجة للمنظمة إليهم، إلا من حيث زيادة العدد!

ورغم حنقي على ذلك المدير؛ لأن شقيقي لم يستطع حضور عملية جراحية أجريت لأمي ذات صباح، ولأنه حرمني وحرم غيري من الأهل والمعارف من زيارة شقيقي الذي كنا نزوره فننعم بالمكيفات الباردة والعصائر المنعشة، بالرغم من ذلك فقد أكبرت تلك الإجراءات التي شكلت مرارتها دواء لداء التسيب والخمول!

للأسف الشديد نحن شعب لا نعرف قيمة العمل – إلا من رحم – ولا أدل على ذلك مما نرى من مظاهر التسيب والبطء الذي تحسدنا عليه السلاحف، وأكبر شاهد على ذلك سفلتة الشوارع، إذ أن شارعاً واحداً لا يتجاوز طوله بضع كيلومترات قد تستغرق سفلتته عدة سنوات، فالمهندس اليوم مريض، وغداً العامل توفيت خالته، وبعد غد يشارك الجميع في عزاء والد زميلهم، وبعدها يتوقف العمل بدعوى توقف التمويل، وهكذا دواليك.. ولا أحد يعزِّي العمل في فقده الجلل!



وهكذا حُق لكثير من أصحاب العمل أن يستعيضوا عن العمالة المحلية بالعمالة الأجنبية التي تقيِّم العمل وتقل لديها الأعذار، وتنجز العمل الذي تنجزه العمالة المحلية في سنة، تنجزه في شهرين أو ثلاثة فقط.

وفي المقابل يلجأ كثير منا إلى خارج البلاد، حيث يعملون بنشاط وحيوية يفتقدون إليها في بلادهم التي لم يفعِّل القائمون على أمر المؤسسات فيها النظم واللوائح التي تفجر طاقات موظفيهم، على نحو ما فعلت بعض المؤسسات الخاصة، فنجحت في ذلك أيما نجاح، فالإنسان هو الإنسان أينما وجد أنظمة محفزة صارمة تكيَّف معها، وأينما وجد أنظمة متهالكة متسيبة جاراها في التسيب والكسل.

نحن بحاجة ماسة لإعلاء شأن العمل واستشعار مسؤوليته أمام الله تعالى أولاً، وأنه أمانة سنسأل عنها يوم القيامة، ثم بحاجة لقادة وقدوات يجعلون العمل قيمة تمشي بين الناس، ويطبِّقون الالتزام به على أنفسهم قبل غيرهم، وينشرون ثقافته حتى تصبح واقعاً معاشاً، ويضعون لذلك النظم واللوائح الفاعلة التي توازن بين الترغيب والترهيب.



الوظيفة والإبداع: والعلاقة الغائبة..!!

هل طرح أحدنا على نفسه هذا السؤال من قبل: هل هنالك ثمة علاقة ملموسة في بلادنا بين الوظيفة والإبداع؟

الواقع يقول بأن الوظيفة بشكلها الحالي هي إحدى مثبطات الإبداع في بلادنا؛ فبمجرد أن يلتحق أحدنا بوظيفة ما تبدأ مواهبه وإبداعاته في التناقص، إلى أن يصبح أداؤه للعمل آلياً وروتينياً، خالياً من الإبداع والابتكار والتميز!

إن الموظف يتوقع أن تهيئ له الوظيفة مناخاً إبداعياً معافى، وأن تعمل على تنمية خبراته؛ في سبيل تجويد الأداء وتحسينه؛ لكن المؤسف أن الموظف في بلادنا صار يُضرب به المثل في ضعف الأداء وبطئه، وإفراطه في البيروقراطية والروتين القاتل!

ألم يتساءل أحدنا: لماذا لا يستطيع كثير من الموظفين استثمار أوقاتهم في عمل مفيد حين يحالون إلى التقاعد؟!.. لماذا لا يبدؤون حياة عملية جديدة في أي مضمار آخر؟! ولماذا نرى كثيراً من هؤلاء المتقاعدين قد أصيبوا بالاكتئاب والضجر، عاجزين عن الانخراط في عمل آخر حتى يتوفاهم الله تعالى؟!

إن الوظيفة الحقيقية هي التي تعطي صاحبها مهارات متعددة في القيادة وإدارة الذات والآخرين والتعاون معهم، ومقدرة على التفكير والابتكار، علاوة على خيارات متعددة يجابه بها مختلف الملابسات والظروف التي تواجهه في الحياة، بما في ذلك التقاعد أو الفصل؛ لا كما يحدث في واقعنا العملي من قتل لروح التميز واقتحام الجديد، بما تقوم عليه مؤسساتنا التقليدية من فرض للأوامر، وإقصاء للشورى، ووأد لروح الفريق! فالوظيفة كما قال صاحبنا الساخر: تعلِّم الجبن وتقتل روح المغامرة!



إن الشواهد الواقعية تومىء إلى تراجع الوظيفة في بلادنا في كثير من المؤسسات؛ وذلك نتيجة لتراجع أوضاع الموظفين المعيشية، وغياب المؤسسية والتخطيط!

وإني لأتساءل: كيف لموظف أن يبدع وهو يُعطَى راتباً زهيداً لا يكاد يفي بمتطلباته الأساسية، وكيف له أن يبتكر وهو مشغول البال بتقسيم دخله المحدود، ودائب التفكير في همومه وأحلامه الصغيرة التي فرضها واقعه المرير؟!

لذلك لا أستغرب كثيراً حين أجد موظفاً قد تحول إلى آلة صمَّاء، وفقد روح التفاعل مع الآخرين حين تكالبت عليه الهموم، إلى أن يستوي عنده الفرح والحزن!

عفواً! إنها ليست دعوة للإحباط والاستسلام للأمر الواقع، ولكنها مناشدة للقائمين على الأمر في مؤسساتنا أن يحافظوا على رأس المال الحقيقي لمؤسساتهم، ألا وهو الموظف، بتهيئة مناخ ملائم للإبداع والابتكار، ينقله من التفكير في الأحلام الصغيرة والأهداف الحقيرة إلى السعي للطموحات السامية والأمور العظام.

وهي همسة أيضاً في أذن الموظفين بأن يحاولوا التغلب على الصعاب، ويشعلوا في نفوسهم الهمم العالية التي لا تعرف اليأس والفتور والإحباط، مستحضرين قيم الدين الحنيف من أنّ الله يحب الإتقان في العمل، وكتب الإحسان على كل شيء، وأنّ من أخذ الأجر حاسبه الله بالعمل.



الوظيفة بين إشباع المتطلبات وتفجير الطاقات

كان شأني مع الوظيفة منطبقاً عليه قول الشاعر إبراهيم ناجي:

أعطني حريتي أطلقْ يديَّ   إنني أعطيتُ ما استبقيتُ شيّ

احتفاظي بعهود لم تصنْها   والإم الأسر والدنيا لديْ؟!

بالفعل كان لي مع الوظيفة حرب سجال، ومناظرات، أنتصرُ فيها حيناً بمبدأ التوكل على الله، ثم الثقة في مقدراتي؛ وأُهزم فيها بمبدأ الخوف من المجهول، ومنطق (الخوّاف ربي عياله)!

كنت أشبِّهُ الوظيفة بحياة الرقيق، بتكبيلها للطاقات ووأدها للإبداعات، فكانت تذكِّرني بلسان مؤيديها بأن في الاستقالة مخاطرة لا تُحمد عقباها، وأن في تركها تضييعاً لمن أعول، وربما ذكروا حديث (**كفى بالمرء إثماً أن يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوت**)[1].

كان كثير من زملائي يؤمنون بما أقول في ذمِّ الوظيفة، ولكن أكثرهم كان إما مكابراً جاحداً بما استيقنته نفسه، أو مغلوباً على أمره لا يجد بديلاً، أو يخشى الفقر والعوز، و﴿**ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ**﴾[2]، أو مسكيناً يمنِّي نفسه بأمانٍ ووعود يسوقها المديرون في العادة، من زيادة المرتبات والعلاوات، وتحسين المخصصات، وتوسيع الصلاحيات؛ حتى يطول الأمد على أحدهم، ويعمِّر في الوظيفة بعد أن يُفني فيها زهرة شبابه؛وتكون عاقبة الأمر أن تستحوذ على حياته، ويسري روتينها وجمودها وتبلدها في دمه، وتُبرمِجُه كما تُبرمَج الآلات! ومن ثم يعجز عن فراقها – بالرغم من بغضه لها ولنكدها

---

[1] حسنه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٤٨٥).

[2] [سورة البقرة: الآية ٢٦٨].



– فيمَلُّ العطلات والإجازات؛ حتى إذا أحيل إلى المعاش تدهورت صحته، وسارع بخطى حثيثة نحو الموت، حين أصبحت حاجته للوظيفة كحاجة السمكة للبحر!

كنت أتمثل في مناظراتي عن الوظيفة – بالرغم من انضوائي تحت رايتها إلى حين – بأبيات الشاعرالفلسطيني هارون هاشم يحيى التي غيّرتُ فيها بعض الكلمات حتى تتفق مع حالي:

أنا لن أعيش موظّـــفَا   أنا لن أظل (مكتّفَا)
أنا لي غـدٌ وغداً   سأزحف ثائراً متأفّفَا
أنا صاحب الأمل الكبيرِ   وصـانعٌ منه الوفَا
أنا ثورة كبرى تزمجرُ   بالعواصـف والجفَـــا

وحين اتهمني بعضهم بأنني أقول ما لا أفعل ــ بدليل عملي في سلك الوظيفة وهجائي لها ــ أتبعتُ القول بالعمل، فكتبت استقالتي مرتين، فتدخلت وساطات في كل مرة، وكُوِّنت لجان تحاول إثنائي عن قرار الاستقالة، وتعدني بتحسين الأوضاع وتوفير معينات العمل؛ ولم تعدني في الحقيقة إلا تخديراً وتسويفاً وهدهدة لجراحي الغائرة.

وكان أن عدت إلى مزاولة العمل تحت وقع الوعود والضغوط، ورجعت كرة ثانية لأزاول هوايتي المفضلة في نقد الوظيفة والنَّيل منها؛ لأُفرغ فيها حرّ كبدي وأُذهب غيظ قلبي، فأنشأت أقول:

أعطـني حريتي أطلـقْ يديَّ   واحذر أخي مما يسمى بالوظيفةْ
ماذا يروقك في القيودِ   وأنت في أيامك الغُرِّ الوريفةْ؟!

ومن عجائب توارد الخواطر أنني قرأت للشاعر محمد المهدي المجذوب خواطرَ وأبياتٍ يبث فيها تبرمه من الوظيفة وقيودها، وعجبت كيف صبر على الوظيفة قرابة ربع قرن من الزمان، بالرغم من ضيقه بها ونقده اللاذع لها! إذ يقول في أبيات له:

عد يا قطارُ فلن أعود وظيفتي

قيدٌ عليَّ بأجره يتصدقُ

ويقول أيضاً:

وظيفتي لئيمة

أخدمها تأكل حقي جهرةً، ألعنها تلعنني

لأنني أنخس بالشعر حمارها الوقيرْ

ودُهشتُ كيف صبر المجذوب طيلة هذه السنوات على قيود الوظيفة وبيروقراطيتها، بالرغم من طبيعة المبدعين المتمردة على الروتين القاتل والحياة الرتيبة! ولا سيما وأنه قد عمل محاسباً، مع أن العداء قديم بين لغة (الأرقام) ولغة (الأقلام)!

ويقيني أن المجذوب قد عانى كثيراً من صراع داخلي بين دواعي الإبداع في نفسه ومتطلبات الحياة التي جعلته يتصالح مع الوظيفة مرغماً، وهذا ما أكده في مقدمة ديوانه (الشرافة والهجرة): (ولم أتمكن من الجمع بين الواقع الذي أعيش فيه والشعر، ثم غلب عليّ ابتغاء الأجر في طلب العيش، فأعطيت وظيفتي، وهي حق لا ريب فيه، كل وقتي وتفكيري وطاقتي). وهذا ما أكدته أيضاً الأستاذة نسرين عبد الهـــادي الصديق بقولها: (ما بين عمل الشاعر كموظف في دواوين الخدمة الحكومية، وهو أقصى ما كانت تتوق إليه الذات المتعلمة في ذلك الزمان، وما بين شخصية الشاعر المثقف الذي يحمل من الفكر الكثير شقٌّ كبير، فنجد الخيبة من الوظيفة قد لازمت الشاعر، فلم يسعفه ذلك في سد متطلبات الحياةاليومية، ولم يرقَ ذلك بشعره كذلك).

وهذا دفعني للتساؤل: ماذا لو انتصرت دواعي الإبداع في نفس المجذوب وانحاز لشعره وفكره فاستقال من وظيفته ضارباً بامتيازاته المزعومة عرض الحائط؟!.. في اعتقادي أن الاستقالة كانت ستشكل نقطة تحول تجعل منه رقماً فارقاً في معادلة الإبداع، ليس على مستوى الأدب السوداني وحده، بل على مستوى الأدب العربي بِرُمَّتِهِ!

ولعلَّ هذا ما دعاه للأسف على وظيفة أفنى فيها ريعان شبابه بالرغم من عجزها عن إشباع متطلباته المعيشية وتفجير طاقاته الإبداعية:

عجبت لنفسي كيف أصبحتُ جالساً إلى مكتب أُبلي شبابي في الجردِ

وأخذت أتشدق ببعض القصص لأناس خلعوا رداء الوظيفة وأداروا لها ظهورهم؛ فاحتضنهمالنجاح، وصعدوا في سُلّم الرقي بخطى حثيثة واثقة، حين تخلصوا من لباس الخوف والجبن؛ حتى إن أحدهم سلّم مفتاح سيارته، وأشاح بوجهه عن راتبه المغري، وبدأ يؤسس لمركز تدريب مستقل في مجال التنمية البشرية، فكان له ما أراد!

وذكرت لزملائي الموظفين مقولات تذمُّ الوظيفة وتنتقدها مثل قول أحدهم: (الوظيفة أمان من الغنى، أمان من الفقر)؛ أي أن الوظيفة تجعل صاحبها في حاجة ماسة إليها، فلا هي بالتي تفقره تماماً، ولا هي بالتي تغنيه فتجعله يكتفي بها عن الاستدانة وسؤال الناس!

وطفقت أُورد مقولات مثل (الوظيفة أضيق أبواب الرزق) ومقولتي (الوظيفة والإبداع يسيران في خطين متوازيين لا يتقاطعان) في إشارة مني لتكبيل الوظيفة للمبدعين وكبتها لطاقاتهم التي لا يستخدمون ٢٠% منها على أحسن الأحوال، وما قاله المتخصصون في التنمية البشرية، مثل قولهم (إن الذي يبقى في الوظيفة أكثر من خمس سنوات فاشل!)، وإن كنت قد أدمنت الفشل بالفعل حين بقيت في الوظيفة سبع سنوات عجاف، لم تتبعهن سبع سمان!

وحين شكّك بعضهم في مدى جديَّتي في الاستقالة أعلنتها داوية، فكانت استقالتي مفاجأة لم يتوقعها أقرب الأقربين إليّ، حين ضقت ذرعاً بقيود الوظيفة، وعراقيلها، ونكدها، وضيق ذات يدها، وعجزها عن تفجير الطاقات والإبداعات الكامنة التي لم أستطع تفجيرها خارجِي؛ فخشيت أن تتفجر في دواخلي، وتقضي على ما تبقى من روح الإبداع فيّ، أو تحولني على الأقل إلى إنسان بلا حس ولا روح، أقرب إلى الآلة



منه إلى عالم البشر. وقد كدت أصل بالفعل إلى هذه المرحلة _ لولا لطف الله تعالى _ حيث صرت أعاني من قسوة القلب، وبرود المشاعر، وإعادة إنتاج القديم من الإبداعات!

وهكذا اتخذتها خطوة جريئة، فحار من جرائها أصحاب القرار، ووقف المكذِّبون أمامها مشدوهين، وأُلجمت ألسنتهم حين علموا أنني عقدت العزم بقوة وإصرار هذه المرة، وأنني لن أتراجع عن قراري قيد أُنملة، وزادهم تعجباً واستغراباً أنني لم أجد بديلاً لوظيفتي الحالية، بل ذهبت أبعد من ذلك حين قررت أنني لن ألتحق بوظيفة أخرى مماثلة؛ حتى لا يكون شأني شأن (المستجير من الرمضاء بالنار)!

ولم يكن قرار الاستقالة متسرعاً، أو رد فعل لإجراءات من قبل المؤسسة التي أنتمي إليها، فقد كنت أُبيِّت النية وأتحين السانحة الملائمة، حتى حانت الفرصة، فاستخرت الله عزَّ وجلَّ، وكانت النتيجة مفاجأة سارة لي حين قُبلت الاستقالة هذه المرة بأعجوبة، دون سؤال أو وساطات أو أجاويد، فغمرتني الفرحة، ولم أصدق أنني بين عشية وضحاها نزعت عن رقبتي ربقة الوظيفة، وأصبحت حراً طليقاً في أرض الله الواسعة، لعلي أجد فيها مراغماً كثيراً وسعة!

وهنا انطبق بيتا إبراهيم ناجي تماماً على حالتي في تلك الأثناء؛ فقد طالبت بالحرية والاستقلال من سلطات الوظيفة، وكنت قد أفرغت ما في جعبتي من سهام في محاولات مستميتة للتطوير، حاولت بها تجاوز حواجز الإحباطات، وقلة المعينات، وكثرة الأعباء، وضعف التقييم، وقلة المحفزات المعنوية والمادية، وكانت الاستقالة مؤشراً للوصول إلى طريق مسدود، بعد أن شعرت أنني لا أستطيع تقديم المزيد من العطاء، وأدركت زيف الوعود بتحسين الأوضاع وتذليل العقبات التي تعترض العمل؛ فما كان من داعٍ لاحتفاظي بعهود ووعود لم تصنها الوظيفة، وما كان من باعث يحملني على التقيد بوظيفة حُق لي أن أنزع قيودها التي كنت أرزح تحت وطأتها وأسرها.

حينها جمعت شتات نفسي، وقوّيت يقيني بأن أبواب الرزق مفتوحة؛ لأن الله — وحده – هو الرزاق ذو القوة المتين؛ فكانت الاستقالة مصداقاً لذلك، شققت بها سكون الصمت، ومزقت بها خيوط الخوف والتوجس من مستقبل بلا وظيفة:

أعطـني حريتي أطلـقْ يديَّ — إنني أعطيتُ ما استبقيتُ شيّ

احتفاظي بعهود لم تصنْها — والإم الأسـر والدنيـا لـديْ؟!

وهكذا صرت أتنسم عبق الحرية التي قال عنها القائل: (الحرية نور ونار: من أراد نورها فليصطلِ بنارها)، وصرت بعد استقالتي من الوظيفة أنظر لكل موظف _ مهما بلغ شأنه _ بعين الشفقة، باعتباره مغلوباً على أمره، وقد كنت أنظر إليه من قبل بعين الغبطة قبل تعييني بها!

كنت موظفاً.. فاستقلت.. فاكتشفت!!

كنت موظفاً أرزح تحت وطأة وظيفة أثقلت كاهلي، وجعلتني أعيش عطالة فكرية، وجموداً عقلياً، وتبلُّداً حسياً، وخوفاً من المستقبل، وجبناً من المغامرة!

كنت أدور في فلك هذه الوظيفة، وأرسف في قيودها، توجهني أنى شاءت، ومتى أرادت، وتشلُّ حركتي بدوامها اليومي، وتزحم فكري باجتماعاتها التي لا تنتهي، وتقاريرها التي لا تُقرأ ولا يُبَتُّ في أمرها، وتشغلني بخططها التي لا تكتب بواقعية، ولا تنفَّذ؛ وتحاول بعد ذلك كله إقناعي براتبها الهزيل الذي لم يفقرني ولم يغنيني، فلم أقطع به أرضاً، ولم أُبقِ به ظهراً!

ومع ذلك كلِّه، أغرت غيري ممن لا يعرفونها، فكانوا يلاحقونني بنظرات الإعجاب وعبارات الثناء، وقد بهرتْهم بوجاهتها المهيبة، وزيها المهندم، ومقعدها الوثير، ومكتبها الفخم، وسيارتها المريحة، ومكيفاتها الباردة، وما دروا بأنني لم أكن أشعر بهذه المظاهر، ولا أُحس بطعمها حين رضيت أن أكون أسير العقل والإرادة، وأن أسلم دفة توجيهي إلى غيري!

الآنَ – بعد أن استقلت – افتقدت لمميِّزات عدة منحتها الوظيفة، مثل السيارة والمكتب والراتب الثابت، ولكنني كسبت راحتي النفسية، وامتلكت زمام المبادرة.. اكتشفت أن لديّ طاقات كامنة، وإمكانيات أكبر مما كنت أظن، فخرجت من ضيق الوظيفة وأسرها، إلى سعة العطاء الفياض؛ فانطلقت أعقد علاقات تصب في تحقيق أهدافي، وأُثري تجربتي بالاستفادة من تجارب الآخرين، وألبي دعوات كنت عاجزاً عن إجابتها من قبل.

اكتشفت عملياً أنّ من توكل على الله تعالى حق التوكل، وأحسن الظن بربه، وأخذ بالأسباب؛ وفَّقَهُ الله وسدد خطاه، وأن دعاوى بعضهم من وعد بالفقر، وتخويف من



صعوبة العيش خارج نطاق الوظيفة؛ إنما هي محض افتراءات وتخرصات، تنمّ عن ضعف الإيمان، وقلة الثقة بالله جلّ وعلا، وفي الحديث: عن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لو أنكم توكَّلون على الله حق توكُّله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً)[1].

حكى لي أحد زملائي السابقين في الوظيفة أن موظفاً فُصل من وظيفته، فاغتمّ غمّاً شديداً، وأظلمت الدنيا أمام ناظريه، لكنه استعان بالله، واستجمع عزيمته، واقتحم الحياة العملية في مجال تخصصه، فكان أن أنشأ عملاً خاصاً، وأخذ يسعى جاهداً في توسيعه وتطويره، إلى أن كان له ما أراد؛ فنجح نجاحاً مبهراً، وحقق أرباحاً طائلة، فقرر في آخر الأمر أن يرسل خطاب شكر للمسؤول الذي كان سبباً في فصله من الوظيفة!

فقلت لصاحبي مداعباً: هذا الرجل ما كان له - بعد توفيق الله تعالى - أن يحقق ما حققه لولا فصله من الوظيفة؛ لذا من الأولى لك أن تتخلى عن الوظيفة معزَّزاً مكرماً قبل أن تغادرها مرغماً مجبراً.

الوظيفة لا شك نعمة من نعم الله عزَّ وجلَّ ينبغي أن يُحْمَدَ الله عليها ابتداءً، وكثير من العاطلين يفتقدونها، وقد تكون مرحلة لا بد منها لتعلم الإدارة، والنظام، والانضباط، والعمل في فريق، ولكنها تصبح نقمة حين يركن إليها الإنسان، بالرغم من عجزها عن إشباع المتطلبات، وتحقيق الطموحات، وتفجير الطاقات، وانغماسها في وحل الروتين، والبيروقراطية، والتبلد، والملل!

ولعل بعض الناس قد لا تصلح له إلا الوظيفة التي تناسب طبعه، وتوافق ميوله ومقدراته، لكن بعضهم قد تكون الوظيفة محجِّمة لطاقاته الإبداعية الكامنة، ومعوِّقاً لطموحاته الجامحة، فمن كان هذا شأنه لا تزيده الوظيفة إلا كبتاً وتطويقاً و(رحم الله امرأً عرف قدر نفسه).

---

[1](رواه أحمد وغيره).



لكن إن وُجِدَتِ الوظيفة التي تفجِّر الإبداع الكامن في الإنسان، وتغرس فيه روح الابتكار والتجديد، وتحقق له في الوقت نفسه أهدافه، وتسدُّ احتياجاته، ولا تلقي بظلالها على حياته الخاصة والحقوق الواجبة عليه (مثل حقوق الرب سبحانه وتعالى، وحقوق النفس، والزوجة والأبناء، والأهل) فأهلاً بها ونعمى، وأكرم بها من وظيفة؛ وأنا أول المؤيدين لها والملتحقين بها، أما ما دون ذلك؛ فهي قناعة غير محمودة، واستسلام غير مطلوب.



الإدارة بالأشخاص..!!

التقيت بأحد الأصدقاء الذين يتقلدون منصباً إدارياً في إحدى المؤسسات، وكان الهمّ مرتسماً على وجهه، كأنما جمعت هموم الدنيا فيه، فاستوضحته الأمر، فشكا إليّ الإدارة ومشاكلها، فقلت له مبتسماً ابتسامة واثقة:

- إنني أعرف مشكلة الإدارة لديكم، ولدى المؤسسات المماثلة لمؤسستكم.

فسألني في شيء من الدهشة:

- وما هي؟!

قلت له بذات الابتسامة الواثقة:

- إن مشكلة الإدارة لديكم هي أنك تحتاج فيها إلى التدخل المباشر حتى تسير بصورة طبيعية، فمن حين لآخر تجد نفسك مضطراً للتدخل بنفسك لإزالة العراقيل والعثرات التي تعترضها؛ فهي إدارة غير سلسة، وغير منسابة.

فازدادت دهشته حينها وقال لي:

- صدقت؛ فأنا أجد نفسي مضطراً بصفة يومية للمتابعة بنفسي حتى يسير العمل كما ينبغي.

*****

مما يؤسف له أن تجد كثيراً من مؤسساتنا مفتقدة إلى المؤسسية، غارقة في الاضطراب والتخبط، يكاد يغيب فيها تجويد الأداء، وتختفي منها الكفاءة، وتتوارى منها الرؤى والأهداف.

ومن مظاهر غياب المؤسسية أن يعترض طريق الإدارة كثير من العراقيل التي تضطر المديرين للتدخل المباشر لإزالتها، مع أن المؤسسة الناجحة هي التي تنساب فيها الإدارة

انسياباً سلساً، وتقل فيها مهام وتكاليف الموظفين كلما علت درجاتهم الوظيفية، أما المؤسسة الفاشلة – وما أكثر المؤسسات الفاشلة – فهي التي تكثر فيها مهام وتكاليف الموظف كلما علت درجته الوظيفية، إلى أن تصل إلى المدير، فتجده أكثر الناس انشغالاً، قد شغلت الإدارة جُلَّ وقته أثناء الدوام اليومي، وامتدت لتشاركه في أمواله وأولاده، حتى كادت الخصوصية تنزوي من حياته!

ومردُّ ذلك في رأيي يعود إلى جملة من الأسباب، أولها ضعف التفويض، فكثير من الرؤساء جعلوا المؤسسات مرتبطة بأشخاصهم، تدور في فلكهم أينما حلوا، وتعتمد عليهم اعتماد السمك على الماء! لذا لا تجدهم يميلون إلى تفويض المرؤوسين؛ إما لأن المرؤسين غير مؤهلين، أو لضعف ثقة هؤلاء المديرين فيهم، وهذه الصفة في الغالب قد لا يكون لها مبرر سوى تركيبة المدير النفسية المتشككة في مقدرة الآخرين وأمانتهم، دون مسوغات موضوعية وواقعية؛ لذلك يضطر المرؤوسون للجوء إلى المدير في كل صغيرة وكبيرة؛ لأنهم لا يملكون التفويض اللازم والصلاحيات الكافية، فيرجعون إليه في أدق التفاصيل وأبسط التكاليف ليستشيروه ويحصلوا على موافقته.

لذا لا تعجب إن وجدت الموظف يلجأ إلى المدير ليصدِّق له مبلغاً بسيطاً، أو أن تجد المدير يحضُر اجتماعاً لأقسام فرعية لا تتبع له مباشرة، ولو كانت هناك إدارة منسابة لما احتاج إلى ذلك؛ إذ إن التقارير التي يقدمها مديرو الإدارات ستكون كافية لو عملت المؤسسة بنظام (التفويض والمحاسبة).

ثم إن مشكلة كثير من الموظفين أنهم يفتقدون إلى الدافع النفسي الذي يحفزهم على خدمة مؤسستهم، وقد يكون ذلك ناجماً عن عدم وضوح الأهداف، وغياب الإستراتيجيات، وضعف الخطط، وعدم وجود آلية لمتابعة وتقييم وتقويم الإستراتيجيات والخطط المرسومة – إن وجدت – فضلاً عن انفصام قيادة المؤسسة عن قاعدتها، وعدم إحساسها وتفاعلها بقضاياها، واقتصار علاقتها بها على العمل الروتيني، دون أن تكون



هناك أبعاد إنسانية واجتماعية وعلاقات وثيقة خارج إطار العمل، وقد يكون ناتجاً عن ضعف الحوافز المعنوية والمادية في العمل، علاوة على ضعف المتابعة والمحاسبة.

وقد تكمن المشكلة في ضعف تأهيل الموظفين وتدريبهم، مع أن أغلى ما تملكه المؤسسة هو كادرها البشري الذي يعتبر رأس المال الحقيقي لها، إضافة إلى قلة التناغم والانسجام بين هؤلاء الموظفين؛ مما يفضي إلى إضعاف روح الفريق التي تجعل العمل قائماً على التعاون المشترك لتحقيق الأهداف، هذا إلى جانب استخدام المؤسسة أنظمة ووسائل إدارية قديمة بالية، غارقة في الروتين والبيروقراطية، أنظمة ووسائل تجاوزتها الإدارة الحديثة التي تعتبر كل العاملين في المؤسسة – من مديرها إلى خفيرها – شركاء فيها، يسهمون سوياً في تطويرها وترقيتها، ويعملون بروح الفريق في انسجام تام.

إن مؤسساتنا بحاجة حقيقية إلى تقييم الأساليب التي تُدار بها؛ حتى تلحق بركب المؤسسات الحديثة التي بلغت شأواً بعيداً في مضمار الإدارة الحديثة؛ لكي تكون أكثر فعالية، ومقدرة على تحقيق أهدافها وخدمة المجتمع.



التخصص والإبداع بين ضغوط المجتمع ورغبات الفرد

كنت من الذين حضروا الاحتفال الذي أقامته جامعة الخرطوم لتكريم فريق المناظرة الذي حاز على الجائزة الأولى في المسابقة الدولية للمناظرة باللغة العربية بدولة قطر، ضمن ثلاث وأربعين جامعة من مختلف دول العالم التيشاركت في هذه المسابقة.

وحين قدّم الطلاب الذين شاركوا في تلك المسابقة نموذجاً للمناظرة كانت الدهشة حاضرة بيننا لذلك المستوى الرفيع الذي أظهره أولئك الطلاب، من امتلاك لناصية الحديث، وسرعة في البديهة، وقوة في الحجة والبرهان، وارتفعت مناسيب الدهشة حين علمنا أن الطلاب الأربعة الذين مثلوا الجامعة هم من طلاب الكليات العلمية، وتحديداً من الطب والهندسة! وليس من كلية الآداب، أو غيرها من الكليات الأدبية كما كان يُتوقع!

وهنا يدلف سؤال إلى ثنايا السياق: ما السر في أن كثيراً من الأدباء والشعراء والكتاب الصحفيين، وغيرهم، من خريجي الكليات العلمية؟

إن السر يكمن – في رأيي – في أن كثيراً منا يلتحق بالتخصص المعين دون رغبة فيه، وإنما مجاراة للاتجاه العام السائد في المجتمع، وبما أن مجتمعنا يعاني من مشاكل صحية متفاقمة، وبه فجوات واسعة في البناء والتعمير، فإن الهيمنة هي لتخصصَي الطب والهندسة تحديداً، وما يدور في فلكهما من تخصصات؛ فكثير منا التحق بالطب أو الهندسة بالرغم من أن ميوله تتجه لدراسة الآداب أو القانون أو التاريخ؛ وما ذلك إلا إرضاء للمجتمع الذي يُعلي من شأن هذين التخصصين ويكرِّس لهما؛ حتى أوشك عدد الأطباء أن يتفوق على عدد المرضى، وحتى كاد المهندسون أن لا يجدوا جهات تستوعبهم؛ وحتى كاد من التحق بالطب أو الهندسة دون رغبة منه – بالرغم من أدائه الأكاديمي العالي – يفتقد إلى الإبداع عند ولوجه للحياة العملية، حين التحق تحت ضغط



المجتمع بمجال لم يجد نفسه فيه؛ وبالتالي تفقد البلاد كوادر كان يمكن الاستفادة منها في مجالات أخرى، هي أحوج ما تكون إليهم.

أعرف طلاباً التحقوا بالطب فاتجهوا لدراسة الآداب، وطلاباً التحقوا بالهندسة فلم يكملوا دراستها، وعملوا في مجالات محسوبة على تخصصات أدبية! وما ذلك إلا لأنهم انساقوا خلف رغبة المجتمع، متغاضين عن رغباتهم الحقيقية، وميولهم الإبداعية.

وفي المقابل: يلتحق بالكليات الأدبية من لم يؤهله تحصيله الأكاديمي للالتحاق بالكليات العلمية، دون رغبة منه، فيكون تحصيله الأكاديمي ضعيفاً، وأداؤه العملي فيما بعد باهتاً!

في الدول المتقدمة يمنح المجتمع الفرد حرية الالتحاق بالكليات التي يميل إليها، دون تدخل لفرض تخصص معين – كما يحدث عندنا — ففي مجتمعنا يقول الأب والأم لأولادهما منذ الصغر: (نريدكم أن تصبحوا أطباء أو مهندسين)، دون اعتبار لميولهم وتطلعاتهم، على النقيض من الدول المتقدمة التي تجد فيها التخصصات الإنسانية والأدبية مثل القانون والآداب والاجتماع وعلم النفس حظها من الاهتمام والتقدير، جنباً إلى جنب التخصصات العلمية.

أذكر أنه بعد أن خرجنا من إحدى جلسات امتحان القيد الصحفي قال لي أحد الصحفيين، وكان يعمل بالفعل في إحدى الصحف: إن مشكلتي الوحيدة هي امتحان اللغة العربية! ولا أدري ما تبقى لصحفي لا يجيد اللغة العربية من مشاكل!

الحل – في رأيي – هو أن نترك للطالب الحق في حرية اختيار التخصص الذي يراه مناسباً، وفق ميوله ورغباته، دون تدخل من الأسرة أو المجتمع، فالطبيب الذي لا يبدع في مهنته ربما كان سيكون مبدعاً لو اختار تخصص الصحافة الذي يجد نفسه فيه، والمهندس الذي يتضجر من مهنته ربما كان سيكون مبدعاً لو التحق بالقانون الذي يميل إليه.



وعلى القائمين على أمر التعليم أن يستفيدوا من تجارب الدول الأخرى التي سبقتنا في مجال التعليم، بحيث يختار كل طالب التخصص الذي يميل إليه حسب رغبته هو، لا حسب تحصيله الأكاديمي، وحتى إن كان يميل إلى مجال معيَّن ولم يؤهله تحصيله الأكاديمي للالتحاق به، فيمكن أن تجرى له معالجات، مثل كورسات التقوية التي يتأهل بموجبها للمجال الذي يرغب فيه، وبالتالي المجال الذي يجد نفسه فيه، حتى يكون مبدعاً، وفعالاً، وأكثر إفادة ونفعاً للمجتمع.



تحديد الأهداف ووضع الخطط: محاولة للبحث عن بوصلة

ذكر لي أحد الأصدقاء أنه قد حقق جُلَّ أهدافه التي رسمها في عشر سنوات، منها الزواج، وبناء المنزل، وشراء السيارة، إضافة إلى إنجازات على الصعيد العملي والأكاديمي والنشاط الإبداعي، وقد حقق تلك الأهداف بنسبة كبيرة، فحتى السيارة التي اشتراها كانت من ذات النوع الذي اختاره بالتحديد!

سألته عن سر هذا النجاح والتوفيق، فأخبرني أن السبب هو تحديده لأهدافه، وكتابته إياها، وجدولتها وفق جدول زمني.

حقيقة، لفت ذلك الصديق انتباهي إلى أمر في غاية الأهمية، يفتقد إليه الكثيرون في مجتمعنا على وجه التحديد، حيث تسير الحياة بلا بوصلة ولا أهداف، (بالبركة) كما يقولون!

حياتنا للأسف الشديد تفتقد إلى التخطيط، وتكاد تخلو من المبادرات، وحتى إن وجدت هذه المبادرات فإنها تكون رد فعل للمواقف أو الأحداث، وليست مبنية على أهداف وخطط واضحة، والمحزن أن هذا الأمر ينطبق على أعلى المستويات، فحتى على مستوى الدولة تضعف الأهداف والخطط المرتبطة بفترة زمنية محددة، وحتى إن وجدت الأهداف والخطط، فقل من يعمل على تنفيذها، وحتى إن كان هناك من ينفذها، فيندر أن تجد من يتابع التنفيذ وكيفيته، فيحاسب على القصور، ويحفز على الإنجاز؛ لذا يستغرق المشروع الذي التزمنا بتنفيذه في سنتين خمس سنوات أو ست، وتستغرق سفلتة الشارع التي تعهدنا بتنفيذها في ستة أشهر سنتين أو ثلاث، ومن أراد أن يوقن بفشلنا في الالتزام بالأهداف والخطط، فلينظر إلى أربع مشاريع استغرق أقلها عشر سنوات، وما زال بعضها ينتظر، مع أنه لو كانت هناك خطط واضحة وأهداف محددة، ومتابعة، ومحاسبة للمنفذين لهذه المشاريع؛ لما طال بها الأمد حتى كادت تسقط من ذاكرة الناس! وهذه المشاريع هي:



مشروع (واحة الخرطوم)، ومشروع (سندس) الزراعي، وطريق (الإنقاذ الغربي)، ومشروع (المدينة الرياضية)، والأخيران لم يكتملا بعد، بالرغم من مرور أكثر من عشر سنوات على تاريخ البدء فيهما!

قليلون هم الذين لديهم أهداف في هذه الحياة، وأقل منهم الذين لديهم أهداف مكتوبة، وأقل منهم الذين لديهم أهداف مكتوبة مجدولة بجدول زمني وفق خطة معينة! وأقل منهم الذين يلتزمون بتنفيذها رغم كثرة المقاطعات والخروقات.

الأهداف إذا لم تكن محددة ومجدولة بجدول زمني وخطة واقعية ممرحلة، واستفرغ الإنسان جهده في تحقيقها، فستظل دائرة في فلك الأحلام الهائمة والأماني الزائفة! فشأنها شأن القائل:

نتمنى وفي التمني شقاءٌ ونناجي يا ليت كانوا وكنَّا
ونصلي في سِرِّنا للأماني والأماني في الجهر يسخرْنَ مِنَّا
غير أني وقدْ كرهتُ التمنِّي أتمنَّى لو كنتُ لا أتمنَّى

أُجريت دراسة على مجموعة من الناس يمثلون فئات مختلفة، فوُجد أن الذين لديهم أهداف محددة حققوا في حياتهم أضعاف النتائج التي حققها الذين لم تكن لهم أهداف محددة، والذين لهم أهداف محددة ومكتوبة حققوا أضعاف النتائج التي حققها الذين لهم أهداف محددة ولكنها غير مكتوبة.

كتابة الأهداف وجدولتها وفق جدول زمني محدد تجعلها حاضرة في الذهن، خاصة إذا كان الشخص يطالعها ويراجعها كل يوم، فإن نسي أو أصابه الفتور والكسل نفض عنه غبارهما حين يذكر تلك الأهداف، وأنها مرتبطة بزمن قد ينفد قبل تحقيقه إياها.

ومما يؤسف له أننا حين جرَّدنا حياتنا من الأهداف والخطط صارت بلا معنى ولا طعم، تنساق كيفما اتفق، ومتى سنحت الظروف والأحداث؛ ففقدنا زمام المبادرة، لننتظر أن تمطر السماء ذهباً!



يقولون: (قيمة المرء ما يحسن)، ولكنَّ قيمة المرء الحقيقية هي ما ينشد وما يهدف – كما ذكر ذلك الشيخ محمد سيد حاج رحمه الله – فأهدافنا هي التي تثمِّن حياتنا وتمنحها قيمة عالية، وخير الأهداف ما ربُط برفعة الدين وإعلاء رايته، وخير الناس – في رأيي – من جعل أهدافه الدنيوية وسيلة لتحقيق الأهداف الأخروية، لا غاية في حد ذاتها.

لماذا يقل المتميِّزون فينا؟!

كثيراً ما أتساءل لماذا يكاد التميز يغيب عن حياتنا، فأغلب من لاقيت لا يعدو أن يكون نسخة مكررة تكراراً سمجاً مملاً من غيره، إلا من رحم الله تعالى!

لماذا يرضى الكثيرون بأن يعيدوا إنتاج تجارب غيرهم، ويقنعوا بأن يعيشوا في الظل ليمارسوا حياة روتينية ضاربة في التقليدية والسأم؟!

لو سألتَ كثيراً ممن تقابل عن أهدافه في الحياة، لوجدتها غارقة في وحل السطحية والذاتية وقصر النظر، وحتى إن كانت أهدافاً طموحة لا تجده يسعى جاداً لتحقيقها! فأكثر الناس يسير بروح القطيع، ويخوض مع الخائضين، دون أن يكلف نفسه مشقة صعود الجبال وركوب الصعاب!

والسؤال الذي يؤرقني: لماذا يقل المتميزون في مجتمعنا على نحو ملحوظ إذا قورن بغيره من المجتمعات التي بلغت شأواً بعيداً في الحضارة والتقدم؟! لا شك أن هناك أسباباً تكمن خلف هذا الافتقار الشديد إلى التميز!

أول هذه الأسباب وأعظمها - في رأيي - يكمن في ثقافتنا المجتمعية، فنحن قوم لا نعلي في أدبياتنا من قيمة العمل، وأكبر دليل على ذلك أن تجد آلاف الشباب العاطلين عن العمل، ليس لأنهم لم يجدوا عملاً، ولكن لأنهم لم يجدوا عملاً ينسجم مع رغباتهم ويتفق مع مجال تخصصهم، مع أن كثيراً من الشعوب قد تجاوزت هذه الفلسفة التي لا طائل من ورائها، فصار من المعتاد أن تجد فيها سائق تاكسي يحمل شهادة ماجستير، أو خريجاً جامعياً عاملاً في مطعم. أما نحن فما زلنا نعتبر ذلك عيباً وسُبّة اجتماعية عند كثير منا! لذا فضَّل الكثيرون العطالة على العمل.. فلا تستغرب إن وجدت شاباً يعتمد على أبيه أو إخوته بعد تخرجه لعدة سنوات، ويكون الفراغ الذي يعانيه دافعاً



للانحراف والضياع.. وهكذا تُهْدِر بلادنا كل يوم طاقات كان يمكن أن تسخرها في التنمية والإعمار!

وحتى الذين يعملون في وظائف، لا تجدهم يقدِّرون قيمة العمل، فيهدرون الوقت، دون مراعاة للمهام الموكلة إليهم بطبيعة وظائفهم التي يتقاضون عليها أجوراً، فصار أمراً معتاداً أن تجد أغلب الموظفين قد خرجوا ـــ أثناء ساعات الدوام الرسمية — بحجة المشاركة في عزاء والد زميلهم أو زميلتهم، فيفعلون المستحب ويتركون الواجب الذي تتعطل بتركه مصالح الناس، مع أن هذا العزاء يمكن أن يُقدّم بعد ساعات العمل!

وحتى الذي يلتزم بالدوام الرسمي تجده يضيع الوقت في وجبة الإفطار، وشرب الشاي، وقراءة الصحف اليومية، وتجاذب أطراف الحديث مع زملائه! حتى إن بعض الدراسات تشير إلى أن متوسط عمل الموظف في اليوم لا يتجاوز نصف ساعة (كما أشار إلى ذلك الزميل جمال فقيري في عموده (إلى العلا) بصحيفة المحرر)! فيتناسى هؤلاء أن إتقان العمل وإحسانه من صميم الدين، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (**إن الله كتب الإحسان على كل شيء**)[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**)[2].

وحتى الوظائف — في غالبها - لا تفضي إلى تطوير مقدرات الموظفين وتفجير طاقاتهم، ولا تكسبهم مهارات تُذكر، فتكون المحصلة: موظف يؤدي مهامه بروتين قاتل وآلية رتيبة، دون إبداع أو إجادة!

كما أننا شعب لا يقدر أهمية الوقت — إلا من رحم — ولا قيمة له بالنسبة إلينا؛ إذ أننا ننفقه بسخاء في ما لا طائل من ورائه، فهو أرخص شيء بالنسبة إلى كثيرين منا،

---

[1] رواه مسلم برقم (٥١٦٧).

[2] السلسلة الصحيحة برقم (١١١٣).



مع أن العناية بالوقت مما حث عليه ديننا الحنيف. وبما أننا لا نهتم بالوقت وأهميته فقد عُرف عنا التأخير في المواعيد، والحضور بعد فوات الأوان!

ومن الأسباب أيضاً: البيئة الاجتماعية المثبطة التي تحارب الجديد، ولا تشجع الابتكار والتميز، البيئة التي تلجأ إلى أقصر الطرق، وهو التقليد الأعمى والتكرار الممجوج!

ومن الأسباب: افتقار البلاد إلى جهات ترعى المواهب والإبداعات، وتنمي المهارات، وتشجع البحث العلمي، مع أن هذه الجهات تمثل القاعدة التي نهضت عليها كثير من الدول التي انتشرت في جميع أنحائها مراكز تتبنى الإبداعات، وتشجع المواهب، وتوظف الطاقات لخدمة الوطن، وتجزل العطاء للباحثين، حتى إن بعض الدول قد يصل فيها عائد البحث المفيد للمجتمع خمسين ألف دولار، فلا تتملكك الدهشة إن التقيت فيها بباحث بلغ عدد بحوثه ثلاثة آلاف أو يزيد!

وإني لأتساءل: هناك آلاف من المتميزين أكاديمياً، بما فيهم أوائل الشهادة السودانية والموهوبين والمبدعين الذين التقينا بهم في المدارس والجامعات والمناسبات الاجتماعية: ما هو مصيرهم، وما هو تأثيرهم؟ لا شك أن كثيراً منهم استسلم لثقافة المجتمع، وذاب في البيئة المحبطة؛ بدليل أننا لا نلمس لهم أثراً حقيقياً على أرض الواقع!

ما لم نغير من ثقافتنا التي لا تقيِّم العمل، وبيئتنا المثبطة للإبداع والتميز، ونهتم بالبحوث والدراسات الجادة، فسنظل قابعين في ذيل الأمم وهامش الحضارات.



لماذا لا نكون عظماء؟!

في كل يوم ما نقابل كثيراً من الناس فلا نلتفت إلى أغلبهم، ولا نتذكر منهم إلا القليل، ولا تُنقش في ذاكرتنا إلا مواقف بعينها يصنعها بعضهم، فذاكرتنا عادة ما ترتبط بالمواقف الخارجة عن المعهود وعن الروتين الذي صار سمة بارزة لحياتنا اليومية.

ولكن السؤال الذي يطفو على صفحة ذاكرتي الآن هو: ما الذي يميِّز حياة أحدنا عن الآخر، ولماذا يمرُّ علينا في حياتنا ملايين الأشخاص ونحس بأن الغالبية العظمى منهم لا تعدو أن تكون نسخة مكررة وممجوجة من بعضها.. نفس الدورة الحياتية: طفولة.. شباب .. زواج.. إنجاب.. ووفاة، دون أن يخلِّف معظمهم ما يسترعي الانتباه!

فهل كان للعظماء وذوي العزم في هذه الدنيا مقدرات تفوق مقدراتنا، أم كان لهم أعضاء تزيد عن أعضائنا؟ بالطبع الخيار الثاني لا يستقيم؛ والخيار الأول قد يكون صحيحاً، ولكن هل كلُّ من له مقدرات فائقة بالضرورة عظيم؟ هذا أيضاً لا يستقيم؛ لأن كثيراً ممن كانت له مقدرات فائقة لم يستحق أن يدرج في مصاف العظماء؛ مع العلم بأن الإنسان لا يستغل من مقدراته في أغلب الأحيان ما يزيد عن ٢٠%.

في رأيي أن مردَّ ذلك يعود أولاً إلى توفيق الله عزَّ وجلَّ، ثم إلى العزيمة التي تميِّز العظماء عن غيرهم. وكما قال بعض الحكماء: (لو تعلق قلب ابن آدم بالثريا لنالها)، وقال المتنبي:

على قدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدْرِ الكرامِ المكارمُ

فتعظُمُ في عين الصَّغيرِ صغارُها ... وتصغر في عين العظيمِ العظائمُ

وقال أيضاً:

وإذا كانَتِ النّفُوسُ كِباراً ... تَعِبَتْ في مُرادِها الأجْسامُ



وكَذا تَطْلُعُ البُدورُ عَلَيْنَا   وكَذا تَقْلَقُ البُحورُ العِظامُ

وقال:

إذا غامرتَ في شرف مرومِ   فلا تقنع بما دون النجومِ

فطعم الموت في أمر حقيرٍ   كطعم الموت في أمر عظيمِ

لكنَّ البعض كان عظيماً في الحق، وبعضهم كان عظيماً في الباطل؛ وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة).

فهل سألت أخي نفسك يوماً: لماذا لا تكون عظيماً في الحق، تذود عن الدين، وتحمي حياضه بما تملك من مقدرات، في أي مجال كان؛ لتفوز بخيري الدنيا والآخرة؟! لماذا ترضى أن تكون حياتك نسخة مكررة من حياة الآخرين، لا طعم لها ولا لون ولا رائحة، ولا هدف لها ولا منهج ولا تخطيط؟! ولماذا تحصر نفسك في الأهداف الصغيرة، وتشغلها بتوافه الأمور التي تحجبك عن عظائمها ومعاليها؟! لماذا تركن إلى الدنيا، وترضى بالفتات، بدلاً من أن تعلق قلبك بالله ونصرة دينه بكل ما أوتيت من قوة ومقدرة؟!

إنها خاطرة عجلى لنراجع حياتنا سوياً: إلى أين تسير؟ وبم تنشغل؟.. دعوة لننفض غبار التواكل والكسل والروتين والجمود، ونستبدل كل ذلك بالتوكل على الله والعمل والعزيمة والمثابرة؛ وما التوفيق إلا من عند الله.



لماذا تنطفئ كثير من النجوم في سمائنا؟!

كثير من النجوم انزوت من حياتنا، وانطفأ بريقها، بعد أن سارت بذكرها الركبان، واحتفى بسطوعها المحتفون.

فكم من أديب حاذق انكب الناس على إصداراته يلتهمونها التهاماً، ثم غاب عن ذاكرة الإبداع!

وكم من صحافي أثارت مقالاته وتحقيقاته جدلاً واسعاً، ثم لم تعد كتاباته تجذب أحداً!

وكم من سياسي بارع شدَّ الانتباه بحنكته وذكائه، ثم توارى عن الأنظار وتجاوزه مسرح السياسة!

وكم من أكاديمي حقق الدرجات العلمية المبهرة، فأثار إعجاب من حوله، ثم أصبح مغموراً، بعد أن كان محط الأنظار وموضع الاهتمام!

وكم، وكم، وكم.... فالقائمة تطول، والأمثلة تستعصي على الحصر، ولكن هذه المشاهد المتكررة في كل زمان ومكان تستدعي سؤالاً منطقياً: لماذا تبرق هذه النجوم في حياتنا، ثم سرعان ما تخبو وينطفئ ضوؤها وتغيب عن المشهد، بالرغم من امتلاكها لمقدرات هائلة وإمكانيات كبيرة على المستوى الشخصي؟!

مردُّ هذا – كما ذكر مالك بن نبي – يعود إلى أن كثيراً من الناس لم يجمع بين الجهد والعبقرية، وبين الإبداع والتطوير، وبين الموهبة والصقل؛ فكم من شخص وهبه الله عزَّ وجلَّ عبقرية أو إبداعاً أو موهبة، ولكنه اغتر بثناء الناس عليه، وخدعه انبهارهم به، وتواكل على ما أوتي من خصائص ومميزات، فلم يعمد إلى تطويرها، ولم يتعهدها بالرعاية والصقل، فتجاوزه الزمن، وعجز عن مجاراة المتغيرات والمستجدات؛ فعالم اليوم تطبعه السرعة بطابعها، ويعد التجديد والتغيير معلَمين بارزَين في طريقه السريع، فلا يكاد فيه



الناس يلتقطون أنفاسهم؛ إلا من بذل من الجهد ما يوازي هذا التحديث المستمر في كل المجالات والتخصصات.

قد يكون الأديب حاذقاً، ولكنه لا يجدد أساليب سرده، ولا يطور لغته، ولا يقرأ من الكتب ما يلبي احتياجات المجتمع ويطور إبداعه الفني؛ فيغض القراء الطرف عن كتاباته التي تسقط في درك النسيان.

وقد يكون الصحفي مثيراً للجدل، ولكنه يتناول ذات الموضوعات، ويبدأ كتاباته بذات المقدمات المعهودة، ويستشهد بذات المراجع؛ فلا غَرْوَ أن يتخطاه القراء ويبحثوا عن بدائل يشبعون بها شغفهم إلى الجديد المفيد.

وقد يكون السياسي بارعاً، ولكنه يظل نمطياً في معالجاته لمسائل السياسة، لا يطلع على الجديد، ولا يطور أساليبه ولا خطابه السياسي؛ فيصبح في دنيا السياسة نسياً منسياً، بعد أن كان ملء السمع والبصر.

وقد يكون الأكاديمي متميزاً، يحصل على أعلى الدرجات العلمية، وأرفع الشهادات الأكاديمية، ولكنه يرضى من الحياة بوظيفة تسجنه في نفق الروتين والتبلد، ولا يطوِّر نفسه في مجاله الأكاديمي بالبحث والدراسة، ولا يقدم لمجتمعه شيئاً؛ فتكون المحصلة أن يسقط نجمه من سماء الشهرة والنجومية.

وثمة عامل مهم هو الفيصل بالنسبة لكل ما ذكرنا، فقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن كل ما ارتفع من الدنيا فهو موضوع لا محالة، حيث قال: (**حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعهُ**)[1]. والمعروف أن الكمال محال، وأن طبيعة البشر يعتورها النقص والقصور. يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى: (فكل ارتفاع يكون في الدنيا، فإنه لا بد أن يؤول إلى انخفاض، فإن صحب هذا الارتفاع ارتفاع في النفوس، وعلو في النفوس؛ فإن الوضع إليه أسرع؛ لأن الوضع يكون عقوبة، وأما إذا لم

[1] رواه البخاري برقم (٢٨٧٢).



يصحبه شيء، فإنه لا بد أن يرجع ويوضع، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

قد يقول قائل: إن هناك نجوماً تظل لامعة في سمائنا بالرغم من كونها لم تعمل للآخرة، بل كان كل عملها للدنيا، ومن أجل الذيوع وحظوظ النفس؛ وقد يقول قائل: ما دام كل شيء سيقع وينخفض مهما ارتفع، فلا داعي أن نبذل جهداً ونقدم ما في وسعنا لتطوير ما نقدمه للناس، فنقول لهما: إن ما كان لله هو الذي يمكث في الأرض وينفع الناس، وهو الذي يسود ويرتفع ذكره في الحياة الدنيا، وينفع صاحبه في الآخرة، وهو المستثنى من السقوط والوقوع والانطفاء المذكور في الحديث، يقول الشيخ ابن العثيمين في تفسيره لذات الحديث: (وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (من الدنيا) دليلٌ على أن ما ارتفع من أمور الآخرة فإنه لا يضعه الله، فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2]، هؤلاء لا يضعهم الله عزَّ وجلَّ ما داموا على وصف العلم والإيمان، فإنه لا يمكن أن يضعهم الله؛ بل يرفع لهم الذكر، ويرفع درجاتهم في الآخرة).

فالنجومية الحقيقية هي ما ما كانت لله وارتبطت بالآخرة، وأخذ صاحبها بأسباب الرفعة المشروعة من التطوير وبذل الجهد والمواكبة، أما ما كان سوى ذلك فهو سرعان ما يعلو ثم ينخفض، ويلمع ثم ينطفئ، وحتى لو ظل على لمعانه وبريقه؛ فسيظل لمعانه خادعاً وبريقه سراباً يحسبه الظمآن ماءً.

---

[1][سورة يونس: الآية ٢٤].

[2][سورة المجادلة: الآية ١١].

شبابنا: الطاقة المهدرة..!!

حينما أرى مجموعة من الشباب ينتقلون من ظل شجرة إلى أخرى، ومن رصيف إلى آخر، وحين أراهم يقضون نهارهم في ما لا يفيد، ويسهرون ليلهم في ما لا ينفع، وينامون حتى تحرقهم الشمس منتصف النهار، حينها يعتصرني الألم، ويعظم يقيني بأن هذه البلاد تُهدر طاقات لا تقدر بثمن، وتفقد ثروات أغلى من الثروات التي فقدتها بانفصال الجنوب من البترول والذهب والأراضي الزراعية.. تفقد عماد نهضتها، وأُسَّ رفعتها، ورأس مالها البشري.. رأس مالها الحقيقي الذي يفجر الثروات الكامنة، ويبعث الحضارات من سباتها العميق.

شبابنا اليوم – إلا من رحم – تتقاذفه أمواج الشبهات، وتعصف به رياح الشهوات، ويعاني من فراغ روحي، ويفتقد إلى القدوات؛ فلا غرو أن تجده فاقداً للبوصلة، يتبع كل رويبضة ناعق، ويقتات على ثقافات وافدة، لا يفرق بين غثها وسمينها، فاقداً للهوية، استُلبت ثقافته، ومُيِّعت شخصيته!

إن الواقع الذي يعيشه الشباب اليوم، من تخبط وفراغ حصيلته الانحراف، وحصاده الإجرام، ومظاهره الركون إلى اليأس، والإحساس بالضياع، والثورة على القيم والأخلاق!

كل المنعطفات التاريخية والتحولات الكبرى في تاريخ البشرية كان الشباب وقودها، وركيزة انطلاقتها، وأمة لا تُعنى بشبابها لا تستحق البقاء، ولا تملك مقومات النهضة والبناء، وكل الدول التي قطعت شوطاً بعيداً في ركب الحضارة أولتِ الشباب عناية خاصة، ففجرت طاقاته العقلية والجسدية؛ ليبدع، ويبتكر، ويشارك في عملية التنمية والتطوير.

شبابنا اليوم بحاجة لقدوات وقادة، يشحذون هممهم نحو العطاء الفعال، قدوات وقادة يشذبون سلوكهم ويربونهم على معالي الأمور وأشرافها، ويوجهون طاقاتهم إلى المسار

السليم الذي يخدم دينهم وأمتهم.. بحاجة إلى المؤسسات والمراكز والمخيمات التي تستوعبهم، وتنمي مواهبهم، وتعزز ثقتهم بأنهم البناة الحقيقيون لنهضة الأمة وحضارتها.



مرافئ الثقافة

وشرفات الإبداع

اقرأ.. وأمة لا تقرأ!!

ما زال الكتاب في رأيي هو السبيل الأنجع للعلم والثقافة، بالرغم من الوسائل الحديثة التي زاحمته مثل التلفاز والإنترنت.

الكتاب هو الوحيد الذي يستطيع أن يحدد من هو العالم أو المثقف من أشباه العلماء وأنصاف المثقفين؛ وما أكثرهم في هذا الزمان!

وأول آية أنزلت في القرآن الكريم بدأت بقوله تعالى: (اقرأ)؛ مما يدل على أهمية القراءة وعظم دورها في قيادة الأمم ورفعتها.

ولكن الواقع اليوم يقول بأننا أقل الأمم قراءة؛ ولذلك نحن أقلها علما وحضارة؛ فإذا قرأنا الصحف فإننا نقرأ الخطوط العريضة، وإذا قرأنا الكتب نقرأ العناوين أو المحتويات في أحسن الأحوال، وإذا دخلنا موقعاً على شبكة الإنترنت نمر عليه سراعاً؛ وكأن شخصاً يطاردنا.. وليتنا ندخل مواقع ذات نفع وفائدة، ولكننا ندخل المواقع التي تضيع الوقت في الحوارات الفارغة من المحتوى، والأغاني الماجنة أو الصور الخليعة، مع أن ديننا حث على طلب العلم النافع والقراءة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1]،وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

سيظل الكتاب كما قال المتنبي (خير جليس)، ولكن الذين يريدون العلم السهل والثقافة المبسطة هم وحدهم الذين لا يريدون أن يدركوا هذه الحقيقة؛ فالعلم والثقافة

[1] [سورة الزمر: الآية ٩].

[2] [سورة المجادلة: الآية ١١].



يحتاجان إلى بذل الجهد، والصبر، والجلد، واغتنام الأوقات التي يضيعها البعض فيما لا فائدة فيه، ثم يتعللون بأنهم لا يجدون وقتاً للقراءة!

إن القراءة تحتاج بحق إلى مجاهدة النفس؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1]، فنسأل الله أن يهدينا سبيل الحق والرشاد.

[1] [سورة العنكبوت: الآية ٦٩].

اقرأ..واقرأ.. واقرأ..!!

من أكثر ما يثير الحزن والأسف انحسار حجم القراءة إلى الحد الأدنى في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية!

وإني لأتذكر عهداً قريباً، قد يراه البعض زماناً غابراً، كانت فيه القراءة تاجاً مرصعاً بالجواهر والحُلي؛ فما إن تدخل بيتاً حتى تجد الكتب والمجلات كما تجد الأثاث والزينة؛ ولا تستغرب حين ترى الوالد منهمكاً في قراءة كتاب، أو الابن منسجماً مع قراءة قصة أو مجلة، ولا تُدهش حين يُحضر الأب كتاباً أو مجلة إلى البيت له أو لأبنائه، أو حين يصحبهم لأحد معارض الكتب، ولا حين يوفر الطفل من مصروفه الخاص ليشتري كتاباً أو مجلة.

أما الآن فلم تعد الكتب ذات قيمة عند الكثيرين، وتبخرت مقولة (اثنان أحمقان: معير الكتاب ومعيده)؛ فصار الأحمق هو الذي يقتني الكتاب، وبعد أن كنا نخاف على كتبنا من الإعارة والسرقة صارت هذه الكتب أهون من أن تستعار أو تُسرق، فقد تضع كتاباً ثم تعود إليه بعد سنة كاملة، دون أن يستعيره أحد أو تسوّل له نفسه سَرِقَتَه، وأفضل من يأخذ الكتاب هو الذي يتصفحه دون أن يقرأه، أو يقرأ منه صفحات قلائل في أحسن الأحوال!

وأكثر من يتعللون بضيق الوقت أو عدمه لا يتورعون من الجلوس ساعات طويلة أمام القنوات الفضائية، أو في النوادي، أو على الطرقات، ومنهم من يستعد لمشاهدة مباريات كرة القدم قبل ساعتين أو ثلاث من بداية المباراة! وهؤلاء الذين يتذرعون بالحجج الواهية التي يبررون بها قطيعتهم مع الكتاب تجد أكثرهم ثقافة من يقرأ صحيفة رياضية أو يدخل مواقع الدردشة والتواصل الاجتماعي!



انحسار القراءة في مجتمعاتنا ليس ظاهرة صحية، بل أقل ما يمكن أن توصف به هو أنها ظاهرة مرضية نخرت عظام المجتمعات التي كانت القراءة ملء السمع والبصر فيها، فتلاشت أمام بريق القنوات الفضائيات والإنترنت ومباريات كرة القدم، وصارت مقولات مثل (القاهرة تكتب، وبيروت تطبع، والخرطوم تقرأ) ضرباً من العبث الصبياني، مثلها مثل بيت الشعر القائل:

أعز مكان في الدُّنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتابُ

قد يقول قائل: إننا نقرأ في الإنترنت مثلاً، بينما يشير واقع الأمر إلى أن أغلب الذين يدخلون الإنترنت يتصفحون مواقع الترفيه والمواقع الإباحية، بينما تدخل قلة لا تتجاوز ١٠٪ المواقع المفيدة – رغم أن المحتوى المفيد للإنترنت يشكل ٩٠٪ من مجمل المحتوى – وحتى هؤلاء لا يصبر أكثرهم على القراءة؛ إما لصعوبة القراءة لفترة طويلة عبر الإنترنت، أو لنفاد الصبر والاستعجال لدخول أكبر عدد ممكن من المواقع؛ فالقراءة هنا لا تعدو أن تكون قراءة سطحية في أغلب الأحيان، لا ترقى إلى مستوى الكتاب الذي يتميز بالعمق ويسر القراءة في أي مكان. وقد بزَّنا الغربيون في أمور الدنيا حين أفردوا للقراءة حيزاً كبيراً في حياتهم، واعتنوا بأمرها، فلا غرو أن تجدهم يشغلون أوقاتهم بالقراءة عند الانتظار في محطات المترو أو على مقاعد الحافلات العامة أو في أسِرَّتهم قبل الخلود إلى النوم !

انحسار القراءة في رأيي ليس لمزاحمة القنوات الفضائية والإنترنت فحسب، وإن كانت هي من أكثر العوامل تاثيراً، لكن أيضاً لانحسار اهتمام الدولة والمؤسسات التعليمية ومؤسسات المجتمع المدني والأسرة بالكتاب، مما ألقى بظلاله على ضعف التأليف والكتابة الإبداعية؛ فالمؤلف أو الكاتب يتساءل: لماذا أكتب ما دمت لن أجد مطبعة أو دار نشر، والأهم من ذلك: من سيقرأ ما أكتب؟!



إعادة القراءة إلى رأس الأولويات يحتاج إلى تضافر الجهود بين الدولة والمؤسسات التعليمية ومؤسسات المجتمع المدني والأسرة؛ ولا بد من فك القيود المفروضة على الكتاب - إلا ما كان من قبيل الضوابط الشرعية - مثل الرسوم المفروضة على الكتب ومدخلات الطباعة، وتشجيع الكتاب والمبدعين والباحثين، وتأسيس دُور طباعة ونشر، ومراكز بحثية وفكرية وإبداعية؛ لتسهم بدورها في إقامة الفعاليات العلمية والثقافية، فضلاً عن طرح مسابقات وجوائز في مختلف المجالات.

الاهتمام بالقراءة ليس ترفاً أو بطالة كما يرى البعض؛ ولم تنزل أول كلمة من القرآن بالأمر بالقراءة (اقرأ) صدفة أو اعتباطاً، وليس أدل على ذلك مما يردده رواد التنمية البشرية: أنك إذا أردت أن تنهض بذاتك فعليك بأشياء أولها: اقرأ، وثانيها: اقرأ، وثالثها: اقرأ!

من لا يقرأ لا يكتب ولا يطبع!!

كنت أتصفح بعض المدوَّنات على أحد مواقع الإنترنت العربية، فكان أن قارنت بين السودان والدول العربية من حيث عدد المدوَّنات.

كانت حصيلة السودان لا تتجاوز ١٠٧٤ مدونة في حين تجد دولاًعربية تتجاوز مدوناتها ثلاث آلاف مدوَّنة، وهناك دولة عربية خليجية وصلت حصيلتها إلى ما يربو على ست آلاف مدوَّنة، بل وصلت مدوَّنات إحدى الدول العربية إلى ما يفوق الثمانية آلاف مدونة!

دعاني ذلك إلى التساؤل: أين الخلل؟! هل هي أزمة في التعاطي مع التقنية؟ أم إشكال في الكتابة نفسها؛ باعتبارها لم تعد ذات جدوى ولا تجد تشجيعاً يذكر؟ أو لم تعد متنفساً لما يجيش في نفوسنا؟ أم هل هي أزمة قراءة، باعتبار أننا لم نعد نقرأ؛ فلذلك لا نكتب؟!

هذه الظاهرة في رأيي لا يمكن تفسيرها بعامل واحد، وإنما هي عدة عوامل يعضد بعضها بعضاً، لكن العامل الجوهري هو انحسار القراءة في خارطة حياتنا؛ لعدة أسباب منها: أن الاطلاع لم يعد يجد حظه من التشجيع، سواء على مستوى الأسرة أو المجتمع؛ فعلى مستوى الأسرة توارت القراءة خجلاً أمام المد المتنامي للفضائيات وأجهزة الاتصال الحديثة، واستبدلت الأسر في تربية أبنائها الذي هو أدنى (الفضائيات) بالذي هو خير (الكتاب).

وفي الوقت نفسه، لا تجد صناعة الكتاب تسهيلات تذكر من المسؤولين؛ فما زال الغلاء يخيم على أسعار الكتب، ولا يجد الكُتَّاب في الكتابة تشجيعاً يُذكر؛ إذ لا توجد مؤسسات تتبنى طباعة الكتب وترويجها كما هو الحال في بعض الدول العربية وكثير من



دول الغرب، وتُلقى البحوث في الأضابير والأرفف، وتُطوى الكتابات الإبداعية في ذاكرة النسيان! ويجد القاريء نفسه في مفاضلة بين الصحيفة والرغيفة، فيختار الأخيرة بالطبع!

لكن ليس بالضرورة أن نكون دولة غنية حتى تزدهر عندنا ثقافة القراءة؛ بدليل أن هناك دولاً عربية تحسب على الدول الفقيرة، ولكنها تشجع ثقافة القراءة، وتجد الثقافة فيها مرتعاً خصباً.

صحيح أن الإنترنت منفذ من المنافذ التي تعد أقلَّ تكلفة من صناعة الكتاب، وأننا بحاجة إلى تعاطي التقنية بشكل أفضل؛ فهي يمكن أن تخدم قضية القراءة؛ ولكنها لن تكون في يوم من الأيام بديلاً للكتاب الذي ما زال الأفضل، من حيث المحتوى وسهولة التعاطي معه في أي مكان وزمان.

ولكنني أعود وأقول إن المسألة متكاملة؛ فالأمة التي لا تقرأ لا تكتب ولا تطبع، ولذلك أجدني مضطراً اليوم للتشكيك في صحة المقولة الشهيرة: (القاهرة تكتب، وبيروت تطبع، والخرطوم تقرأ)، فلو كنا أمة قراءة حقاً لازدهرت عندنا الكتابة والطباعة، وما دامت هنالك (مدخلات)، فلا بد أن تكون هنالك (مخرجات) أيضاً.

إننا بحاجة لدعم ثقافة القراءة في مدارسنا وأسرنا وجامعاتنا، وتشجيع صناعة الكتب بشتى السبل؛ حتى نُخرج القراءة من القبر الذي وأدناها فيه وهي على قيد الحياة إلى مشارف الرفعة وآفاق الازدهار؛ لأن الأمة التي لا تقرأ – بلا شك – تظل قابعة في ذيل التطور، وفي مؤخرة السُلَّم الحضاري.



القراءة والعرش القديم

كاد الألم يعتصر قلبي وأنا أتطلع إلى جناح للكتاب داخل معرض للتسوق دون أن أجرؤ حتى على الاقتراب منه: ما هذا البرود الذي أصابني تجاه الكتب وأنا الذي مرَّت بي سنوات لا أنام إلا والكتاب بجواري، ولا يقع في يدي مال حتى أسارع لشراء كتاب، حتى وإن احتملت الجوع والعطش في سبيل ذلك!

عاد بي طيف الذكريات حينها إلى سنوات الطفولة ومقتبل الشباب، حيث كنا نتابع مجلات وقصص لا يفوتنا منها عدد حتى نسارع لقراءته من أصدقائنا، وكتباً لا يمرُّ أسبوع حتى نشتريها أو نستعيرها، بالرغم من ذيوع مقولة (اثنان أحمقان: معير الكتاب ومعيده) التي صارت اليوم (اثنان أحمقان: مقتني الكتاب وقارئه)؛ حيث قال لي أحدهم منذ أيام حين ذكرت له أنني أبحث عن مكتبة لكتبي المبعثرة في كل مكان: (ده زمن قراية؟!)، فقلت له: لو لم تكن القراءة مهمة لما نزلت أول كلمة من القرآن آمرة بها (اقرأ)، فهل تظن أنها جاءت هكذا عبثاً؟ ثم أضفت: الذين يقرؤون هم الذين يتميّزون في كل مجال؛ لذا لا تستغرب أن كثيراً من الناس لا يتميّزون ولا يطوِّرون أنفسهم!

فهل مرد هذا البرود العجيب الذي تملكني حينها إلى أنني لا أملك فائض مال للكتب في ظل غلاء المعيشة مقابل الراتب المحدود، أم أن المشكلة تتعلق بفائض الوقت بدليل أنني أملك الكثير من الكتب التي لا أجد وقتاً لقراءتها، وأكتفي في أحسن الأحوال بقراءة بضع صفحات منها، هذا إذا لم أكتفِ بقراءة عناوينها وأسماء مؤلفيها ونبذة عن المؤلف أو الكتاب إن أمكن!

لا غرو أن يكون للوضع الاقتصادي المتدهور يد في تراجع القراءة في حياتنا؛ حتى صارت في ذيل الاهتمامات وسط اللهاث الدائم لتوفير لقمة العيش؛ تحقيقاً لأساسيات



الحياة التي اتسعت رقعتها لتشمل كماليات الأمس، في ظل مجتمع يهرول للحاق بمجتمعات استهلاكية غزته ثقافياً وفكرياً واقتصادياً!

ولكننا نعود فنستدرك: إن الوضع الاقتصادي ليس العامل الوحيد في تراجع القراءة، ولكن هنالك عوامل أخرى كالوسائل الحديثة، مثل القنوات الفضائية والإنترنت والجوالات التي زاحمت القراءة في عرشها القديم. وقد يدّعي قائل أنه يقرأ من خلال الإنترنت مثلاً، فنقول له بأنها ليست القراءة المعنية بهذا المقال؛ لافتقادها إلى العمق والتركيز والضبط؛ فكثرة المعروض يستدعي في كثير من الأحيان الاختصار في القراءة، والاكتفاء بالخطوط العريضة؛ لذا يندر أن تجد من قرأ كتاباً عبر الإنترنت، أو على الأقل محفوظاً في جهازه.

أزمة القراءة أزمة حقيقية تستدعي تضافر الجهود بين الأسرة التي تمثل حجر الزاوية في هذا الصدد بتشجيع النشء على القراءة منذ الصغر، ثم المدارس والجامعات ووزارات التربية والتعليم، والتعليم العالي والبحث العلمي، والثقافة والإعلام، ومؤسسات المجتمع المدني التي تُعنى بالثقافة والبحث؛ حتى تعود القراءة للجلوس على عرشها القديم، ويعود الكتاب ليتصدر الموقف، فينعكس ذلك تطوراً وازدهاراً في كافة مناحي الحياة.



اثنان أحمقان: مشتري الكتاب وقارئه!!

لا أدري كيف هانت الكتب على الناس حتى صاروا يمرُّون عليها وهي تباع بأتفه الأثمان، دون أن يحرك معظمهم ساكناً، إلا من رحم.

هذا ما شاهدته وأنا أمر بشارع السيد عبد الرحمن غرب صينية القندول، حين وجدت عشرات الكتب والمجلات تباع الواحدة منها بجنيه فقط، ولا يقف عندها إلا القليلون، ولا يشتري في آخر الأمر أكثر من وقف!

صعدتْ إلى ذاكرتي حينها أيام أقرب إلى الحلم، كان للكتاب فيها حضور في حياتنا، لا يقل أهمية عن أهمية الأكل والشرب، بل كان بعضنا مستعداً لأن يتخلى عن وجبة أو وجبتين من أجل أن يشتري كتاباً أو مجلة، مؤثراً غذاء الروح على غذاء البدن؛ (فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان).

كنا حينها نتبادل الكتب والمجلات مع أقراننا، فلا نعطي أحداً كتاباً أو مجلة حتى يعطينا مقابِلَهُ؛ إذ أننا نؤمن بمقولة (اثنان أحمقان: معير الكتاب ومعيده)، وقد يكون قوام الصفقة الواحدة عشرين أوثلاثين كتاباً ومجلة، وحين يرُدُّ كلٌّ من طرفي الصفقة ما عليه إلى الآخر، يراجع كلٌّ منهما كتبه ومجلاته بكل دقة ليقف على حالتها؛ لأن التمزيق يعتبر إهمالاً، والفقد يُعَدُّ جرماً!

الآن أصبحت المقولة بعد اختلاف أوضاع المجتمع وزهده في القراءة (اثنان أحمقان: مشتري الكتاب وقارئه)، وهذا بالطبع لسان حال الناس لا قولهم.

يحضرني قول د. راغب السرجاني أنه يستغرب ممن يقول بأن هوايته القراءة؛ لأن القراءة لا ينبغي أن تكون هواية، بل ينبغي أن تكون جزءاً من الحياة اليومية مثلها مثل الأكل والشرب. وقد صدق السرجاني، فلم تأتِ كلمة (اقرأ) في صدارة كلام الله تعالى



عبثاً،لتكون أول ما نزل من القرآن الكريم، إن لم تكن على قدر عالٍ من الأهمية والخطورة في حياة الناس.

وقد أدرك الغرب ذلك قديماً ويدركه حديثاً، فكانت القراءة أساس نهضته، وما زالت حاضرة في مدارسه، وجامعاته، وبيوته، وشوارعه، ومواصلاته العامة، فحُقَّ له أن يكون في مقدمة أمم الأرض حين عزَّز من وجود القراءة في مجتمعاته.

القراءة أساس كل حضارة ونهضة، وما لم تحظَ بأهميتها، وتحتل مكانتها في حياتنا؛ فسنظل في ذيل الأمم، وفي أدنى درجات الحضارة.



الهادي آدم ونقد المجتمع السوداني

نقد المجتمع السوداني وتناول ظواهره اتجاه يمثل عصارة تجارب الشاعر الهادي آدم وخبراته في الحياة. وقد تبلور هذا الاتجاه في شعره، خصوصاً عبر قصائد صيغت بأسلوب قصصي بديع، مما يمكن تصنيفه في إطار الشعر القصصي.

ظواهر مختلفة ونهايات مفتوحة:

وقد عكس الشاعر من خلال هذا الاتجاه علاقات المجتمع وظواهره المختلفة، بكل ما فيها من تقاطع وتباين وتعقيد، وترك في أغلبها نهايات مفتوحة تتيح للقارئ آفاقاً أوسع للمشاركة في تفسير النص، وفي إيجاد حلول للقضايا التي تطرق إليها؛ فهي نهايات موحية ذات بعد عميق، يتخطى المدلولات اللفظية القاطعة.

وهذا الاتجاه تمثله عشر قصائد قصصية تقع في ثلاثة دواوين شعرية: ديوان (كوخ الأشواق) الصادر عام ١٩٦٢م، وتمثله قصيدتان: (صوت للبيع)، و(عروس)؛ وديوان (نوافذ العدم) الذي صدر عام ١٩٩٧م، وتمثله: (كون من غير خطايا)، و(عصفور من الشرق)، و(الظار..الظار)، و(حكاية الطاؤوس والحمار)، و(هذا الجنون)؛ أما الديوان الأخير (عفواً أيها المستحيل) الصادر عام ١٩٩٩م فتمثله: (الفأر الأسمر)، و(المصير)، و(بين الكهف والقصر).

اتجاهات نقد المجتمع عند الشاعر:

ويمكن تقسيم نقد المجتمع عند الهادي آدم إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية هي: الاتجاه الواقعي، والاتجاه الفلسفي، والاتجاه الرمزي. ويمثل الاتجاه الواقعي قصائد (صوت للبيع)، و(عروس)، و(الظار..الظار)، و(هذا الجنون)، و(المصير)، و(عصفور من الشرق)، وهو الاتجاه الذي يحظى بأكبر نصيب من نقد المجتمع في شعر الشاعر. أما الاتجاه الفلسفي



فتمثله قصائد (كون من غير خطايا)، و(حكاية الطاؤوس والحمار)، و(بين الكهف والقصر)، بينما لا يحظى الاتجاه الرمزي بحيز كبير من نقد المجتمع عند الشاعر؛ إذ تمثله قصيدة واحدة فقط هي (الفأر الأسمر). ولا غرو في ذلك؛ فالشاعر يميل بطبعه إلى الواقعية؛ ومن ثم تأتي الفلسفة في المرتبة الثانية، ثم الرمزية في نهاية المطاف.

أساليب نقد المجتمع:

المثير للانتباه فينقد المجتمع عند الهادي آدم: ارتفاع النبرة الساخرة، التي تكون مريرة كما في (صوت للبيع)، أو لاذعةكما في (عروس)، و(الظار..الظار)، و(حكاية الطاؤوس والحمار)؛ فضلاً عن ذلك يُلاحظ تشخيص الحيوانات، والاستعانة بها لتلعب دوراً مهماً في مجريات القصائد القصصية، كما في (حكاية الطاؤوس والحمار)، و(الفأر الأسمر)، و(بين الكهف والقصر).

وتتعدد الأساليب التي تُعرَض بها القصائد القصصية من قصيدة إلي أخرى، فقد يكون الأسلوب أقرب إلى الحكاية، كما في (حكاية الطاؤوس والحمار)، و(الفأر الأسمر)، و(بين الكهف والقصر). وقد يكون أقرب إلى الأُقصوصة، كما في (صوت للبيع)، و(عروس)، و(عصفور من الشرق)، و(المصير)، أو أقرب إلى الرواية كما في (هذا الجنون).

نماذج من القصائد:

صوت للبيع:

تصوِّر هذه القصيدة بصورة عامة علاقة المثقف بالسلطة، التي تنتابها حالة من التوتر وانعدام الثقة في كثير من الأحيان، ويبدأ الشاعر مطلع قصيدته بقوله:

وأتيتَني يوماً على قدرٍ

متسللاً تسعى إلى دارِي

فرددتُ خطوي عنك في حذرِ

ورفعتُ عن عينيَّ منظارِي



وحين اكتشف الشاعر الهدف الحقيقي من الزيارة، وأنها لم تكن تحمل طابع البراءة، ولم تكن وفاءً للصداقة والود القديم كما ظنَّ، وإنما كانت لمصلحة شخصية بحتة، تسعى إلى المنصب والجاه؛ ما كان منه إلا أن طرح في خاتمة القصيدة تساؤلاً ينطوي على سخرية مريرة ذات مغزى:

ولأجل ذاك ذكرتَ صحبتنَا فأتيتني تســـعى إلى بيتــي؟!

وأتى رسولك يحمـــلُ الثمنَا ومضى يساومني على صوتي؟!

عروس:

هذه القصيدة تصور موقفاً طريفاً، وقع بين الراوي وصديقه الذي طلب إليه أن يختار له عروساً، فعرض عليه خيارات عدة، لم يعجبه منها شيء سوى الأولى التي كانت لسوء حظه أن خطبت لغيره. ولعل هذا لحسن حظها؛ لأن صاحبنا كان سيبحث كعادته عن أي عيب فيها، يتخذه ذريعة ليحجم بها عن الزواج.

وفي ختام القصيدة يأتي الشاعر بنهاية موحية، لا تخلو من سخرية لاذعة، ينتقد فيها المعايير غير الواقعية التي يضعها بعض الشباب لشريكة حياتهم؛ مما هو أقرب إلى عالم المثال منه إلى عالم الواقع:

وقلت اختر إذاً عشراً حساناً وخذ من كل واحدة بقدرِ

وصغْ منهنَّ واحدة وخذها إليك قرينـة مادمـت تدرِي

الظار.. الظار:

في هذه القصيدة يدعو الشاعر لإعادة النظر في ظاهرة اجتماعية سالبة، يروِّج لها الدجالون والسحرة، ويكنزون بواسطتها الأموال الطائلة عن طريق البسطاء والسُذّج، ويشكلون بذلك بديلاً غير شرعي للتداوي بما جاء في الشريعة الغرَّاء والطب الحديث، حيث يقول:

والشيخة ما عادت مرضاها



والشيخ تناساها

إذْ أصبح مشغولاً بسواها

والقصة تتكررْ

ويزيد التكرار لظاها

والكل شغوفٌ بالشيخْ

والكل شغوفٌ بالظارْ

اللهَ على الظار.. الله.. اللهَ على الظارْ

وهكذا يعرض الشاعر المشكلة في النهاية بحياد تام، دون تدخل منه بإبداء رأيه الشخصي حول الحلول الممكنة لهذه المشكلة، إلا في نطاق ضيق؛ ليتيح الباب الأكبر للجميع؛ ليقدحوا زناد عقولهم ويشاركوا في إيجاد الحلول وعلاج الظاهرة.

عدلان مات:

في هذه القصيدة ينتقد الشاعر توغل المدنية على حساب البسطاء من أمثال عدلان (المكوجي) الذي يمثل رمزاً لكثيرين، سحقتهم دعاوى المدنية والمواكبة التي لا تراعي الجوانب الإنسانية:

لما رأى أيدي الرجالِ

تهدُّ جدران المنازلْ

ورأى بأيديها المعاولْ

ورأى التراب يُهال منْ

دكانه ورأى الجنادلْ

وحديث أعمالٍ جرى

بين المهندس والمقاولْ

وخرائطاً تُطوى وتُنشرُ



والعجاجَ يثور من كل الجهاتْ

عرف النهايةَ قد دنتْ

فطوى حبالَ غسيلهِ

ومتاعَ مهنتهِ وفاتْ

ولم يحنْ منه التفاتْ

وسألتُ عنهُ

فقيل: ماتْ!!

ولعل (عدلان) مات كمداً؛ إذ لم يكن من الذين اعتادوا كثرة الكلام والثرثرة، بل كان من الذين يتكتمون بجَلَد وكبرياء على أوجاعهم وأحزانهم؛ فكان من الطبيعي أن يموت في صمت...

خاتمة:

تنوع إنتاج الهادي آدم ــ رحمه الله ــ في تَنَاوُلُ مختلف الظواهر والسلوكيات الاجتماعية بالنقد والتحليل يومئ بجلاء إلى أن الشاعر كان مهموماً بقضايا مجتمعه، مشاركاً من خلال شعره في إيجاد حلول لتلك القضايا؛ وهذا يؤكد دور الإبداع وأهميته في توجيه المجتمع وعكس همومه ومشكلاته.

وهذا المقال لا يعدو أن يكون محاولة متواضعة لاستكشاف جانب يسير من تجربة ثرة لشاعر كبير، ترك بصمات واضحة في خارطة الأدب العربي بوجه عام، والأدب السوداني على وجه الخصوص؛ قد تصيب هذه المحاولة أحياناً، وقد تخطئ أحياناً أخرى، ولكنها في نهاية المطاف قد تشكل دافعاً للآخرين لإعادة تقييم هذه التجربة الإبداعية، وتسليط الضوء على أبعادها المختلفة.

ومات الشاعر المعلم!

يموت الكثيرون في كل يوم، ولكننا نقابل موتهم ببعض الأسف، أو بلا أسف يذكر أحياناً، ولكن عندما يموت شخص يعتبر مؤسسة أثرت بنشاطها شتى مناحي الحياة، فإننا نتوقف حينها طويلاً، وتقفز أياديه البيضاء إلى سطح مخيلتنا، وترتسم إنجازاته في الذاكرة؛ لترسخ فيها بقدر رسوخ أعماله الضاربة بجذورها في حياة الناس.

وعندما يتعلق الأمر بالمربي الهرم، والتعليمي، والشاعر الفذ؛ الهادي آدم، فإنّ الكلمات قد تلهث في سبيل التعبير بعبارات جامعة مانعة عن حياة رجل أثرى ساحة التعليم في السودان بخلاصة خبراته وتجاربه، ورفد الساحة الإبداعية السودانية والعربية بإنتاجه المتميز شكلاً ومضموناً.

كان لقائي الأول به عام ٢٠٠٠م في المركز الثقافي العراقي، وكانت فرحتي عظيمة برؤية شاعر كبير في قامته.. كنت أصطحب أبياته التي أحفظها منذ طفولتي في قصيدته (الأم) التي درسناها في المرحلة المتوسطة.

من كان يسقيني ومن ذا يطعمُ وأنا على مهدي أصم أبكمُ
من ذا يترجم صرختي ويحيلها معنى فيدرك ما أقول ويفهمُ
أمي ويا لفؤادها من جنةٍ كم ذا نعمتُ بها وكمْ ذا أنعمُ

وعندما زرته في منزله بحي المزاد بالخرطوم بحري استقبلني بتواضعه الجم، وحفاوته البالغة، وكنت في غاية السعادة وأنا أستمع إلى رؤاه الثاقبة في الأدب والحياة، وينتابني الفخر وهو يستمع إلى أعمالي المتواضعة ويبدي رأيه حولها.. وكانت فرحتي غامرة حين أهداني مجموعته الشعرية الكاملة؛ يزينها إهداء بخط يديه.. أورثني الثقة بنفسي التي كدت أفقدها في ظل التجاهل والإهمال اللذَين يُجابَه بهما المبدعون في بلادنا!

ورحت مشدوها أطالع أعمال الهادي آدم وأنا مبهور بهذا الزخم الإبداعي المتنوع في دواوينه: (كوخ الأشواق)، و(نوافذ العدم)، و(عفوا.. أيها المستحيل).. وشدتني تلك النظرة النافذة إلى الحياة في شعره، والفلسفة الاجتماعية التي سكب فيها عصارة تجاربه في الحياة، ووجدتني في آخر الأمر أقرر إجراء دراسة عن شعره؛ علّها تسهم – ولو بقدر يسير – في تسليط الضوء على هذا الإنتاج الثرّ؛ الذي لم يجد في بلادنا عُشر ما يستحقه من الحفاوة والتقدير؛ فكانت النتيجة دراسة بعنوان (نقد المجتمع في شعر الهادي آدم: القصيدة القصة نموذجاً).

ألا رحم الله الأستاذ الهادي آدم الذي ظل طيلة حياته منارة للإبداع، ومربياً للأجيال بعمله قرابة نصف قرن في مجال التدريس.

كما نرجو أن يهتم الباحثون، والجهات المعنية بدراسة مؤلفاته، والاستفادة من تجاربه الزاخرة؛ حتى تستنير بها الأجيال القادمة، وتسترشد بإرثه الحافل وخبراته الثرّة.

شعراؤنا وغياب النقد!!

أُصبت بحسرة فادحة عندما علمت أن شاعراً كبيراً بقامة الهادي آدم لم تكتب عنه دراسة نقدية واحدة تُذكر سوى بعض متفرقات عابرة في الصحف والدوريات، تتناول إبداع الشاعر مجملاً، لا تلج إلى العمق ولا تغوص في الجوهر!

وكان حقاً للتجاني أن يقول قبل أكثر من ثمانين عاماً:

يا أديباً مضيعاً من بني الدنيا بحسب الأديب مَحْضُ انتجاعِهْ

أدبٌ ملؤه الحياة وشعرٌ مفعمٌ بالسمو في أوضـاعِهْ

ضاع، ويح الذي يغارُ على الشعرِ وويحَ الأديبِ يومَ ضياعِهْ!

وها هما الشاعران الكبيران محيي الدين فارس ومصطفى سند رحمهما الله يغيبان في صمت ويخلِّفان وراءهما رصيداً إبداعياً ومدرسة أدبية ذات لون مميَّز وطعم خاص، لكن كل ذلك - مما يؤسف له - لم يجد حظه من النقد والاحتفال!

إننا بحاجة لنقد إنتاجنا الأدبي؛ لاستخراج كوامنه والوقوف على مظاهر القوة فيه والضعف؛ لنقدِّم للأجيال المتلاحقة أدباً يرقى إلى مستوى الطموحات، وينهض بالأمة من سباتها الطويل.

إن شاعراً مثل الهادي آدم قدَّم للأمة شعراً يعالج قضاياها الاجتماعية والسياسية، سكب فيه عصارة تجاربه في الحياة وخبراته في التعليم الذي امتهنه قرابة نصف قرن من الزمان؛ لحريٌّ بأن يلقى الاحتفاء الكافي من النقاد والأوساط الأدبية، ولا سيما الثراء الفكري والإبداع الأدبي اللذين قدمهما من خلال ديوانيه: (نوافذ العدم) و(عفواً أيها المستحيل).

ولا أنسى أن أشير إلى جزالة الألفاظ وعمق الأفكار اللذين امتاز بهما شاعرانا محيي الدين فارس، صاحب (الطين والأظافر) و(أنا لن أحيد)، ومصطفى سند صاحب

(البحر القديم) و(ملامح من الوجه القديم)، إضافة إلى دورهما في تفعيل الحركة الثقافية والأدبية، من خلال مشاركاتهما في المنتديات الثقافية والأدبية داخل السودان وخارجه، وما نشراه في الصحف والدوريات.

في الغرب قد تجد ناقداً متخصصاً في شاعر واحد فقط، يتناوله من النواحي النفسية والاجتماعية والأدبية كافة، فيُخرِجُ للقراء نقداً متعمقاً ومتجذراً في تجربة الشاعر؛ ولكننا نقول: إن كان مثل هذا النقد غير متاح في الوقت الراهن، فإننا نطمح على الأقل في نقد يوازي الإبداع الأدبي المتدفق، لا في نقد يتقاصر عن حركة الثقافة والأدب.

قد نختلف مع شعرائنا، وقد نتفق معهم في توجهاتهم، ولكن النقد الأدبي البناء هو وحده الكفيل بأن يميِّز بين الجيد والرديء، والصالح والطالح؛ ولذلك فحاجتنا ماسَّة لكل إسهام نقدي من شأنه أن يطوِّر إنتاجنا الثقافي والأدبي ويدفع بإبداعات الأمة؛ لتشارك بحضور وفعالية في قضاياها وتحدياتها الماثلة على مختلف الأصعدة.

أزمة الأدب العربي الحداثي: ما البديل؟!

الأدب العربي في رأيي يعاني من أزمة حقيقية تحتاج إلى إنقاذ وانتشال من الوهدة السحيقة التي تردّى فيها.

عندما ترك الأدباء العرب تراثهم الأدبي الزاخر، وتنكروا لثقافتهم، واتبعوا كل ما يمليه عليهم الأدب الغربي بانبهار وتبعية عمياء، لا تميِّز بين غث وسمين، كانت النتيجة أن غرق أدبنا في وحل الذاتية والمجردات والمطلقات التي لا تمت للحياة بصلة، حين حاول مجاراة مدرسة الحداثة التي وضع أسسها وقواعدها أدباء ومفكرون غربيون، لا يمثلون إلا مجتمعاتهم التي انحطت في درك المادية، وعصف بها التفكك الاجتماعي والنفسي، حين بعدت عن القيم والمباديء التي جاءت بها الرسالات السماوية كافة، وعمدت إلى إقصاء الدين وإصباغه صبغة شخصية محضة، بل عمدت إلى التحرر من قيود الدين والمجتمع، ورفع القداسة عن المسلمات والثوابت الدينية.

تلمُّس خطى الحداثة الغربية المزعومة من أدباء العرب - الذين نالوا من الشهرة ما لم ينلها غيرهم ممن هو أحق بها منهم - كان هو السبب وراء صدود الناس وعزوفهم عن الأدب الحداثي، حين لم يجدوا فيه إشباعاً حقيقياً لحاجاتهم؛ فعندما يقرأ المتلقي أو يستمع إلى قصيدة مثلاً، لا يلمس فيها معالجة حقيقية لقضاياه، ولا يحس فيها عكساً لما يدور في واقعه المعاش؛ لأنها تمثل بتقمصها لثوب الحداثة المهتريء مسخاً مشوّهاً للتجربة الغربية المغايرة في سياقها التاريخي وتطوُّرِها المعاصر لواقع مجتمعاتنا العربية المسلمة.

والسؤال الذي يلقي الضوء على نفسه: ما البديل للأدب العربي الذي يدَّعي الحداثة، حتى كاد يفقد هويته واستقلاله، إلى الحد الذي جعل منظِّره أدونيس يقول في حوار أجرته معه صحيفة (القدس العربي) إنه يستحي من الانتماء للثقافة العربية!



الإجابة في رأيي دون تردد: البديل هو (الأدب الإسلامي)، لأنه أدب بنائي فاعل، ينأى عن الذاتية والتخبط اللذين يعاني منهما الأدب العربي الحداثي؛ فهو يدعو إلى تنقية العقيدة أولاً من الشوائب، وتجده في مواقع الجهاد والقتال حاضراً، وفي مواقع التزكية والمجاهدة والتربية ماثلاً.

آن لأدباء الإسلام أن ينفضوا عنهم غبار التردد والإحباط، ويعلموا أنَّ بإمكانهم أن يقوموا بالكثير لتقديم بديل يسهم في نهضة الأمة ويعلي من شأنها. ويقيني لا يخامره شك في أنهم سينجحون في ذلك، بل أراهن على نجاحهم بإذن الله تعالى؛ فقط عليهم أن يتوكلوا أولاً على الله عزَّ وجلَّ، ثم يعملوا على استغلال الوسائل الإعلامية التي تسهم في نقل أدبهم إلى أبعد مدى يمكنهم الوصول إليه، ولا ينسوا أن يقدموا أدباً يُعنى بالقيم والأخلاق، كما يُعنى بالمعايير الفنية ويعمد إلى تطويرها.

أراهن على نجاح الأدب الإسلامي الذي يملك من الخصائص والموروثات ما لا يملكه غيره، فهو الأدب المنتصر، وأدباؤه هم الغالبون إن شاء الله؛ فعليهم أن يشمروا عن ساعد الجد للمعركة التي سيخوضونها، ليميز الله الخبيث من الطيب، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾[1]

[1] [سورة الرعد: الآية ١٧].

الأدب الباقي

كثيراً ما أتساءل عن سر بقاء كثير من النصوص الأدبية، وتميُّزها عن غيرها من هذا الكم الهائل من الإنتاج البشري في شتى صنوف الأدب.

هناك الملايين ممن يكتبون الشعر، وهناك مليارات الأعمال الأدبية، ولكن التي يُكتَب لها الخلود والانتشار لا تكاد تصل إلى ١% من هذا الإنتاج الكبير.

فهل للأسباب المادية دور في ذلك؟ وهل حالف التوفيق بعض الأدباء، بينما خذل البعض الآخر؟

قد تكون هذه بعض الأسباب، ولكنها في رأيي ليست الأسباب المؤثرة على أرض الواقع؛ إذ إن الأدب الحاذق القوي يستطيع أن يثبت وجوده؛ ولو بعد حين.. وكثير من الأدباء ذاع صيت أعماله، وكتب لها البقاء بعد وفاته.

تأملت كثيراً من النصوص الأدبية، وحاولت أن أعرف سر هذا البقاء؛ حتى توصلت إلى تخمين قد يكون مصيباً أو مخطئاً؛ ووجدت أن هذه الأعمال جميعها كانت تجمع بين ثلاثة عناصر مهمة لكل عمل أدبي (الصدق والعمق والتلقائية)؛ فالأديب حين يصدق في تجربته، ويكون عميقاً في الزاوية التي يتناول بها موضوعه، وتلقائياً في التعبير عنها؛ فإنه ينفذ مباشرة ودون وسائط إلى وجدان المتلقي، ويخاطب عقله دون حواجز.

إنها دعوة لكل الأدباء المبدعين ليصوِّروا لنا تجاربهم، ويستخلصوا منها الفوائد والعبر؛ مراعين في ذلك الصدق والعمق والتلقائية، ومولين اهتمامهم للمعايير الفنية التي تميِّز الأدب عن غيره من الفنون؛ دون التفات لدعاوى الحداثة التي سلبت الشعور من الأدب؛ وجعلته باهتاً، ومغرقاً في الغرابة والطلاسم، وبعيداً عن واقع الناس ومعاناتهم؛ لذا لم يكن غريباً أن يتركه الناس حين افتقد الروح، وعجز عن إشباع رغباتهم.



هل أصبحت الثقافة ترفاً؟!

مررت بإحدى اللافتات التي تدعو الجمهور لحضور إحدى الفعاليات الثقافية، فوثبت لذاكرتي أيام خلت كنا نلاحق فيها الندوات الثقافية والمنتديات الأدبية أينما كانت، تتملكنا لهفة عارمة وشوق لا ينفد لما يطفيء ظمأنا ويشبع تعطشنا للثقافة والأدب.

حينها عجبت لأمري: هل انطفأت هذه الجذوة في ظل لهاث الحياة وإيقاعها المتسارع؟! لماذا أصبحنا نمرُّ على إعلانات الندوات والمنتديات دون أن تحرِّك فينا ساكناً، ودون أن نجد ما يدفعنا إلى حضور تلك الفعاليات؟

على أرفف المكتبات، وفي شوارعنا، تتكدس عشرات الكتب في مختلف المجالات، وتشكو قلة المشترين والقراء، ومرتادو الإنترنت – ولا سيما من الشباب – يهدرون أوقاتهم في المواقع الإباحية ومواقع الغناء والموسيقى، ولا همَّ للأطفال سوى المسلسلات وكرة القدم وألعاب الفيديو؛ في الوقت الذي نجد فيه أن صحف التسالي والكاريكاتير والصحف الرياضية هي الأكثر رواجاً، بينما تشكو الصحف والمجلات الثقافية البوار والهزال من قلة المقبلين عليها!

كل ذلك دعاني لأتساءل: هل أصبحت الثقافة ترفاً في ظل المعادلة الصعبة التي ترجِّح فيها كفةُ الرغيفة كفةَ الصحيفة، أم أننا أصبحنا نطبق سياسة الهروب ودفن الرأس في الرمال أمام ما يواجهنا من عثرات وهموم؟! وهل أصبحنا كالآلات بلا أحاسيس ولا مشاعر تدفعنا لننهل من معين الأدب الراقي والثقافة الرفيعة، فنضفي على حياتنا رقة وعذوبة لا نجدهما في وهج العمل والجري وراء الحياة؟!

إن حياتنا بحاجة ماسة لكسر روتينها القاتل، وتجديد دمائها بنفحات من الأدب، وشذرات من الإبداع الإنساني العذب.. بحاجة للترويح عن النفوس بالرقائق، والحكم،



والأشعار، والقصص التي نستوحي منها الدروس والعِبَر، وتدعونا للتفكر في ملكوت الخالق عزَّ وجلَّ وحكمته البالغة؛ فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ولا تستقيم الحياة بالآلية والجمود.



الكُتَّاب والسياسة: بين مسايرة الأحداث والهروب من الواقع

ماذا يفعل الكاتب والأديب والمفكر أمام طوفان السياسة ومدِّها الذي صار طاغياً على مناحي الحياة الأخرى، وفرض نفسه بعد التحولات الكبيرة على الصعيد السياسي التي أوشكت أن تغير مجرى التاريخ؟!

هل يجاري الكاتب هذا الطوفان السياسي، فينجرف ليكتب في السياسة، ويتلافى الخوض في جوانب الإيجاب وكوامن القصور في مناحي الحياة الأخرى؛ أم يتناسى ما هو كائن في السياسة، وينطلق ليعبِّر عما يريده هو، دون مراعاة للأحداث التي تدور من حوله؟!

الحقيقة، لا بد من موازنة بين ما يريده الكاتب وما يحتاج إليه الناس، فالكاتب أو الأديب أو المفكر لا ينبغي أن يعيش في برج عاجي بمعزل عن قضايا الناس؛ لأن منهجه الإصلاحي مستمد من واقع المجتمع، وهو في الوقت ذاته لا يجوز له أن ينجرف خلف كل ما يميل إليه المجتمع من حوله؛ فيصبح منساقاً خلف مناسبات وقتية، دون أن يمحص وينتقي ما يعرض له من القضايا والأحداث.

الكُتَّاب والأدباء والمفكرون الحقيقيون يحملون بين جنوبهم رسالة ومنهجاً، لا ينبغي لهم أن يحيدوا عنهما لأي طارىء، وإلا أصبحوا فاقدين للبوصلة، يسيرون بغير هدى، يتبعون كل ناعق، وينجرفون وراء كل صوت نشاز. وهذه الرسالة وهذا المنهج ينبغي أن يُستمدا من واقع الأمة وقضاياها المعاصرة وتحدياتها الماثلة على الأصعدة كافة، وليس على الصعيد السياسي فحسب.

صحيح أن السياسة في السنوات الأخيرة صارت واقعاً مفروضاً يشكِّل كثيراً من الأحداث الجسيمة – خاصة في واقع الأمة الإسلامية – لكن ردَّ الأمور جميعها إلى



السياسة وتفسير الظواهر بالرؤية السياسية وحدها هو تفسير أحادي ناقص، يفتقر إلى الموضوعية والدقة.

أذكر أن الكاتب الصحفي الساخر جعفر عباس ذكر في إحدى اللقاءات أنه تحدث ذات مرة عن السياسة بصورة مباشرة، وخرج عن الخط الذي اختطه لنفسه، فكانت النتيجة أن أرسل عدد من القراء خطابات احتجاج إلى الصحيفة مندّدين بهذا المسلك، ومهددين بالتوقف عن شراء الصحيفة وقراءتها!

الكاتب الذي يتخلى عن رسالته ومنهجه وأسلوبه من أجل مسايرة الأحداث يفقد احترامه لدى الناس، ولا يخلِّف إرثاً يمكن أن يؤثر في الواقع ويُكتب في سجل التاريخ، فهو لا يعدو أن يكون ظاهرة أخذت حيِّزاً من الزمان، ثم اختفت كغيرها؛ لأنه ببساطة تخلى عن منهجه وفقد بوصلة الهدف.

الإبداع والحنين إلى حياة الطلاب..!!

قلت لبعض الأصدقاء المهتمين بكتابة الشعر: يبدو أنني يجب أن أعود لحياة الطلاب حتى أكتب الشعر! فضحك بعضهم، وابتسم البعض ابتسامات موحية.

كان هذا القول الذي تمنَّيت فيه العودة لحياة الطلاب في معرض حديثي عن ضعف كتابة الشعر الذي أعانيه، منذ تخرجي والتحاقي بالوظيفة، وانشغالي بالحياة الزوجية وتربية الأولاد، حتى صرت أشارك بقصائد مضى على كتابتها تسع أو عشر سنوات، ولم أزد على ما كتبت في فترة الجامعة سوى قصائد قليلة، تُعَدُّ على أصابع اليدين، لم تتعدَّ الحديث عن الإخوانيات، وشيئاً من الرثاء، وبعض المواقف الطريفة!

إن أكثر ما كان يميِّز الفترة الجامعية، ويثير الحنين إليها ثراؤها بالنشاط الإبداعي، كما أن بها من الفراغ ما أتاح لنا الاطلاع على الكثير من الكتب والوقوف على التجارب الإبداعية وحضور المنتديات والفعاليات الثقافية المختلفة.

تذكرتُ حينها عندما كنت في أوج نشاطي الإبداعي، وكيف أنني كنت أستغرب من قول البعض أنهم كانوا يقرضون الشعر في شبابهم، وأحتار كيف تنكروا للإبداع وأداروا ظهورهم إليه، بينما ألتمس لهم العذر اليوم؛ إذ أجدني أسلك مرغماً ذات الطريق الذي سلكوه!

فهل المشكلة هي أن الإبداع لا يمثل قضية محورية بالنسبة إليّ؛ لذا أستطيع أن أتنازل عنه في أي لحظة؟ أم أنني لم أجد البيئة الملائمة التي يستطيع الإبداع أن ينمو ويزدهر فيها وسط التزامات المعيشة ومتطلبات الحياة الأسرية؟! أم أن الأمر يعود إلى الوظيفة بما فيها من روتين يقتل الإبداع ويشلُّ المواهب؟! أم أن المناخ العام في البلاد لا يشجع على الإبداع في ظل ندرة الجهات التي تتبنى الإبداع والمبدعين؛ أم أن ذلك يرجع إلى تدني الذائقة الثقافية والحس النقدي البناء؟! أم أن الأمر شيء من كل ما ذكرت؟!



لا شك أن الإبداع يكره الروتين، والوظيفة إذا كانت خالية من التجديد، غارقة في مستنقع البيروقراطية والملل؛ فإنها تعطل الإبداع وتبلد المشاعر! وكذا الحياة الأسرية إذا فقدت روح الجديد، وغرقت في وحل التقليد؛ فستصبح خصماً على الإبداع والمبدعين؛ ثم إن قلة الجهات الراعية للمبدعين، وضعف الذائقة الثقافية، مما يومئ إلى تراجع الإبداع في بلادنا.

ولكنني بالرغم من ذلك أؤكد تفاؤلي؛ فقد وقفت على تجارب إبداعية طموحة وناضجة لشباب تبشر تجاربهم المتميزة بإبداع متألق، وتبعث التفاؤل بغد أفضل، وتؤكد أن هذه الأمة ما زالت حُبلى بالإبداع والمبدعين، وحافلة بالأدب الذي يخدم دينه ومجتمعه.

وأهم ما يميز هؤلاء المبدعين أنهم في مقتبل الشباب؛ أي أنهم ما زالوا طلاباً بالجامعات، فهل أنا محق في حنيني إلى الحياة الطلابية؟!



التعاطي مع الإنترنت: أزمة وفجوة..!!

إن واقع علاقتنا مع الإنترنت يشكل أزمة حقيقية في التعاطي مع هذه التقنية المتطورة، إما بسوء الاستخدام، أو القطيعة التي تجعل المرء عدو ما يجهل.

ولعل المرء يقف مبهوتاً حين يجد سفارات عربية لم تجدد مواقعها على شبكة الإنترنت منذ عدة سنوات.. سفارات يتوقع مواطنوها أن تضطلع بدور كبير في الدبلوماسية، وأن تكون سفيرة تمثل بلادها خير تمثيل في كل محفل وكل منبر!

ويُصدَم المرء حين يجد جامعات عربية لم تُجدد موقعها على الشبكة منذ ست أو خمس سنوات؛ وهي التي يفترض أن تكون رائدة في مجال نشر التقانة الهادفة في المجتمع! ولكن فاقد الشيء لا يعطيه!

وتلج إلى المدونات فتجد كاتباً واحداً – على سبيل المثال – ينشر سبعين مقالاً أو يزيد، فلا يتلقى سوى ردود لا تتجاوز عشرين رداً، مع أن إحصاءات المدونة تشير إلى أن العدد الذي اطلع عليها يتجاوز العشرة آلاف شخص! وليت الردود التي كُتبت ذات قيمة موضوعية، بل الغالب الأعم لا يعدو أن يكون من قبيل المجاملات والنقد المعمم السطحي الذي لا يلج إلى لُبِّ الموضوع، ولا يقدم ملاحظة بناءة تفيد الكاتب!

وتدخل مقهى للإنترنت، فتجد أغلب الموجودين يضيِّعون أوقاتهم في مواقع الأغاني الهابطة والأفلام الماجنة والحوارات الجوفاء التي لا تغني ولا تفيد!

هذا يدفعنا للتساؤل: هل هي أزمة تعاطٍ مع الإنترنت، ناتجة عن قلة الإمكانيات، أم أُمية تقنية، أم أزمة قراءة، أم أزمة انشغال جعلت الكثيرين يمرُّون على صفحات الإنترنت على عجل!

الحقيقة أنها أزمة تشكلها – في رأيي – كل العوامل سالفة الذكر، وهي عوامل متداخلة يعضد بعضها بعضاً؛ فأزمة التعاطي مع الإنترنت واقع؛ بدليل أن الكثيرين لا



يتصفحونه لعدة أشهر، وربما أكثرهم لم يستفد من الخدمات التي يقدمها مثل البريد الإلكتروني، والاتصال عبر الإسكايبي أو الفيسبوك والتويتر والواتساب، وتحميل المواد المصورة والمقروءة والمسموعة؛ ربما لانشغالهم باللهاث وراء لقمة العيش عن تصفح الإنترنت والقراءة التي قد تستغرق وقتاً طويلاً.

والأمية التقنية واقع لا يمكن إنكاره؛ بدليل أن الكثيرين – بالرغم من حصولهم على قدر من التعليم – لم يستطيعوا أن يتصالحوا مع تقنية الإنترنت، ربما لحواجز نفسية تجعلهم يتهيبونه ويرون أنه مضيعة للوقت فيما لا طائل من ورائه، أو ربما لضعف إمكانياتهم المادية الذي يحول دون تعلُّم الإنترنت واستخدامه فيما بعد بشكل منتظم، أو ربما لجهلهم بفوائده وإمكانياته الهائلة.

إنها فجوة وأزمة معرفية حقيقية في التعاطي مع الإنترنت، هذه الشبكة التي لو أحسنّا استخدامها لأتت بخير عميم.. وهنا تزداد الحاجة الماسة لدور المسؤولين في نشر التقانة وتخفيض أسعارها لتكون متاحة للجميع، كما يعظم دور المربين في تعليم الأجيال التعاطي الإيجابي مع الإنترنت؛ حتى يكون أداة للرقي، ووسيلة لنهضة الأمة ورفعتها.



الإيجابية في الإنترنت: عجز الثقة وجلد الفاجر..!!

كثيراً ما ألتقي ببعض الأصدقاء والمعارف فيذكرون رأيهم في أحد المقالات التي أرسلها عادة بالبريد الإلكتروني، أو أنشرها على المواقع وصفحات التواصل الاجتماعي والمدونات، فأقول: لماذا لم تذكروا هذا الرأي حين قرأتم المقال؟! فيتعذرون بضيق الوقت، وكثرة المشغوليات!

فأسأل بعضهم: هل قرأت المقال؟! فيجيب: نعم – وبعضهم يقول إنني أقرأ لك منذ سنوات – فأعود لأسأله: كم استغرقت منك قراءة المقال؟! فيقول: خمس أو عشر دقائق. فأقول له: إذا لم تستطع التعليق على المقال لانشغالك، فلا أقل من أن تدعو لكاتب المقال بالخير، بأن تكتب (جزاك الله خيراً) إن أعجبك الموضوع، أو تكتب (اتق الله) إن لم يعجبك، ألا تعلم أن من قال لأخيه جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء، كما في الحديث الشريف؟! وأن الله عزَّ وجلَّ أمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتقوى الله جل وعلا؟! إن قراءة المقال الواحد تستغرق خمس أو عشر دقائق – كما ذكرت – وكتابة (جزاك الله خيراً) أو (اتق الله) لا تستغرقان سوى عشر ثوانٍ أو خمس عشرة ثانية على الأكثر!

حقيقة، كثير من الناس يدخلون مواقع الإنترنت المختلفة، ويطالعون البريد الإلكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي، ولكنهم يفتقدون إلى الإيجابية في تعاطيهم مع هذه المواقع المختلفة.

إن الإيجابية في الإنترنت تعضد الفعل الحسن، بالشد من أزره؛ وتقلل من الفعل السلبي، بتثبيطه والحد من انتشاره.. الإيجابية في الإنترنت تعني النصح والإرشاد عند رؤية ما يسئ إلى الدين أو الأخلاق، كما تعني الشكر والدعاء لمن كتب أو نشر ما ينفع الناس



في دينهم ودنياهم.. تعني تكثير الردود والتعليقات على المواقع المفيدة النافعة، كما تعني المطالبة بإغلاق المواقع الإباحية، والتبليغ عن الصور الخليعة والممارسات التي تخدش الحياء.

للأسف الشديد نجد أن المواقع الإسلامية العربية هي الأقل من حيث التفاعل الإيجابي إذا ما قورنت بغيرها، وما ذلك إلا للسلبية الموغلة التي تلجم الكثيرين عن التعاطي الإيجابي مع المنشور في الإنترنت، بالرغم من قراءتهم له واطلاعهم على محتواه؛ إذ تجد الموضوع الواحد يدخله الآلاف، ولا يعلق عليه إلا القليلون تعليقاً معمماً في الغالب، هذا إن لم يبق دون تعليق!

وهكذا يعجز البعض عن الدعاء بالخير، أو حتى عن قول كلمة (مشكور) كحد أدنى، و(لا يشكر اللهَ من لا يشكر الناس)[1]، كما يعجزون عن قول (اتق الله) كما أسلفنا.

ومما يحزُّ في النفس أن أكثر التفاعل في الإنترنت منصب على المواقع الفارغة من المحتوى، والمواقع الإباحية التي تعرض الصور الخليعة ومقاطع الفيديو الفاضحة والموضوعات التافهة، في الوقت الذي تعاني فيه المواقع المفيدة النافعة من الإهمال والتجاهل، كيف لا ومرتادوها غارقون في سلبيتهم الخاملة؟! وما هذا إلا لبعد الكثيرين عن استشعار القيم والمبادئ الإسلامية، واستصحابها في تعاطيهم مع الإنترنت! فـ(عجبت لعجز الثقة وجلد الفاجر).

إن الإيجابية في الإنترنت تعني مزيداً من العطاء النافع المثمر الذي يرسخ للمعروف ويقلل من المنكر، بينما تعني السلبية تمدد الباطل، وانتشار المنكر في ظل الغفلة والتجاهل، وصمت أهل الخير!

---

(1) [رواه الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد].



حتى لا تسود الغثائية في إعلامنا..!!

الأحداث المتتالية في الدول العربية التي شهدت تحولات كبيرة في مشهدها السياسي أثبتت الدور المتعاظم للإعلام في توجيه الرأي العام وتغيير المفاهيم.

تعلمنا في الصحافة أنْ ليس هنالك وجود لما يسمى بالإعلام المحايد، فالخبر الواحد يصاغ حسب توجه كاتبه أو السياسة التحريرية للجهة التي يتبع لها، على سبيل المثال قد تجد خبراً مفاده: (لقي ثلاثة من جنود الكيان الصهيوني مصرعهم نتيجة لهجمات قام بها استشهاديون من جنود المقاومة الفلسطينية)، وقد تجد ذات الخبر يُصاغ بطريقة أخرى: (لقي ثلاثة من الجنود الإسرائيليين مصرعهم نتيجة لهجمات قام بها انتحاريون فلسطينيون).

ليس هناك إعلام محايد بالفعل، بل ليس هنالك إعلام مستقل أو حرٌّ بالمعنى المطلق، فكل إعلام لديه أهداف وخطوط حمراء لا يمكنه تجاوزها، ولديه عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية تحد من استقلاليته الكاملة وحريته التامة.

الإعلام بلا شك سلاح في غاية الخطورة، يمكن استخدامه في البناء أو الهدم، والإعلام الموضوعي الهادف – في رأيي – هو الذي ينطلق من منهج واضح، وفكر ثاقب، وأهداف محددة؛ فيدلو بدلوه في بناء الأمم وتطويرها، وينقل صورة موضوعية للأوضاع الراهنة، مسهماً في تقديم حلول لها؛ وفي ذات الوقت يعكس رؤى وآمالاً لما يجب أن يكون عليه المستقبل؛ باختصار: هو الذي يساهم في نهضة المجتمع، وليس الذي يجاري المجتمع، ويقدم كل ما يطلبه، دون تمحيص وانتقاء، محاولاً إرضاء الناس، ومن أرضى الناس في سخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، كما في الحديث.

أما الإعلام الهدام فهو إعلام ينطلق من مصلحته الخاصة، إعلام بلا مبدأ ولا منهج راسخ، لا يعدو أن يكون بُوقاً يجري خلف كل داعم وناعق، ودوننا تجربة بعض

الأجهزة الإعلامية المصرية التي تحوَّل كثير منها في منهجه ١٨٠ درجة، فأصبح من كان يثني عليهم من منسوبي نظام مبارك بالأمس هم أعداء اليوم!

ما أردت أن ألفت إليه الانتباه هو أهمية العناية بإعلامنا وتطويره، بما يشمل ذلك من تدريب وتأهيل للإعلاميين، وتوفير لمعينات العمل، وتوجيه الإعلام نحو إصلاح المجتمع، وترسيخ القيم الفاضلة، ومحاربة الفساد والظواهر السالبة، علاوة على تقويم الإعلام، ومحاربة الاتجاهات النفعية فيه، وإبعاده عن الابتذال والإثارة الرخيصة، ودعمه بحيث لا يتعرض لضغوط من قبل الشركات المعلنة، وغيرها من أصحاب الأموال.

ويؤسفني القول إن واقع الإعلام في بلادنا وغيرها من البلاد العربية والإسلامية محزن، ويبعث على الاستياء، فمن النادر أن تجد إعلاماً إصلاحياً هادفاً ينطلق من ثوابت واضحة وقواعد راسخة مستمدة من ديننا الحنيف؛ فالإعلام الهادف في بلادنا يتعثر في عوائق التمويل، ويصطدم بمفاهيم المانحين القاصرة على بناء المساجد والمدارس وحفر الآبار والإغاثة الطبية والغذائية، تلك المفاهيم التي ما زالت حتى الآن ترى - بالرغم من دور الإعلام المتعاظم في توجيه الرأي العام العالمي- أن إنشاء صحيفة أو قناة فضائية ضرب من الترف والرفاهية، مع أن نفع الإعلام متعدٍّ، قد يؤثر على ملايين البشر!

وفي مقابل غياب الإعلام الهادف يسود إعلام المصالح، إعلام الغثائية والزبد الذي يذهب جُفاءً، الإعلام الذي يعمد إلى جذب الناس بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، من كذب وافتراء مبني على قلة التثبت من الخبر، ومن نشر للهو والمجون، وابتذال لصور النساء المتبرجات، بل والعاريات، على نحو ما نشاهد في كثير من القنوات الفضائية والصحف والمجلات التافهة وصفحات الإنترنت المبتذلة، ومن إدخال الخرافات والمخالفات العقدية، كإتاحة الفرصة للدجالين والمشعوذين، ونشر أبراج الحظ، وما شابهها، مما يقدح في عقيدة الأمة، ويهز ثوابتها.

إننا بحاجة إلى تشجيع الإعلام الهادف بالوسائل المتاحة كافة، لنبني إعلاماً بديلاً لكثير من الغثاء الذي يملأ الفضائيات والإذاعات وصفحات الصحف والمجلات والإنترنت؛ بحاجة ماسة لإيجاد تجارب جديدة للإعلام المسؤول، وتدعيم التجارب القائمة من الإعلام البنَّاء؛ حتى تقوى على منافسة هذه الغثائية التي آذت أسماعنا وأبصارنا، وأصابت قلوبنا ومشاعرنا بالغثيان!



الصحافة السودانية: إلى أين؟!

صحف تنسلخ من صحف، وصحف تخرج من عباءة صحف، وصحف تعلن توقفها وإفلاسها، وصحف تُغلَق إلى أجل غير مسمّى؛ مشهد أقل ما يوصف به أنه مشهد مضطرب تسوده الفوضى، وتكاد تنعدم فيه الرؤية من فرط الضباب!

الصحافة السودانية ذات التاريخ العريق والإرث المديد تقف اليوم في منعطف محيِّر، وتنتابها حالة أقرب ما تكون إلى الفوضى، فهي تضطرب وتترنح، في حالة مرَضيَّة توشك أن تفضي بها إلى غرفة الإنعاش، تلك الحالة المرَضيَّة التي تتجلى في أربعة أعراض: التقليد، والإسفاف، والضعف، والفوضى.

ويتجلى التقليد في استنساخ الصحف لذات التجارب بحذافيرها، وقلَّ أن تجد صحيفة متميزة من حيث أسلوب الطرح واللغة الصحفية والإخراج الفني، ولو جئت بصفحة من أغلب الصحف، وقصصت شريط العنوان، ثم عرضتها على قارئ متابع لما استطاع التفريق بينها!

وكثير من الصحف السودانية تعاني من الإسفاف في المحتوى؛ إذ تغلب عليها الإثارة المفتعلة- والرخيصة أحياناً - فتحاول جذب أكبر عدد من القراء عن طريق الموضوعات الانصرافية ذات المحتوى الهابط، دون مراعاة للضوابط الشرعية والمعايير المهنية!

كما تعاني صحف عدة من ضعف الأداء المهني؛ لقلة تأهيل كثير من منسوبيها، وينعكس ذلك سلباً على الموضوعات المطروحة عبرها، من حيث العمق والفائدة والمهنية والمصداقية، فالقارئ قد يشتري صحيفة فلا يشده فيها سوى موضوع أو موضوعين، بينما يكتفي بقراءة العناوين الرئيسية في معظم الموضوعات، حتى عزف الكثيرون عن قراءة الصحف؛ باعتبارها لا تضيف كثيراً إلى وعي الفرد ومعرفته!



وتتضح الفوضى في كثرة عدد الصحف الذي حقق ارتفاعاً كمياً لم يصحبه ارتفاع كيفي، بل على العكس كان التوسع الكمي على حساب جودة المحتوى وعمق المضمون؛ حتى صارت الصحف تتساقط، وتعلن إفلاسها وتوقفها بذات السرعة التي بدأت بها، حتى قال بعضهم معلِّقاً: (ينبغي أن تحدَّد الصحيفة مع مواعيد صدورها المواعيد التي ستتوقف فيها!)، ولو جُمعت هذه الصحف التي بلغ عددها عام ٢٠١٢م ٥٩ صحيفة، منها ٣٨ صحيفة سياسية، و١١ رياضية، و١٧ اجتماعية، لو جُمعت جميعاً في بضع صحف لكان أجدى من حيث ضمان استمراريتها، وتطوير أدائها، وترشيد منصرفاتها، وتوفير وضع أفضل كرامة لمنسوبيها.

وأذكر أننا حين جلسنا لامتحانات القيد الصحفي عام ٢٠٠٤م قال لي صحفي جلس لذات الامتحانات: (مشكلتي الوحيدة هي مادة اللغة العربية!) ولا أدري ماذا تبقت له من مشكلات إذا كانت مشكلته الوحيدة اللغة التي يتواصل بها مع القراء، مع العلم بأنه صحفي يعمل بالصحافة منذ عدة سنوات! ولا عجب؛ فالمستوى اللغوي الركيك الذي تظهر به كثير من الصحف هو نتيجة حتمية لالتحاق أمثال هؤلاء بها.

والمتتبع لامتحانات القيد الصحفي يجد تدنياً ملحوظاً في نسب النجاح التي لا تتجاوز في أغلب الأحيان بضعاً وثلاثين في المائة (في عام ٢٠١١م مثلاً بلغت نسبة النجاح في القيد الصحفي 37% فقط)، وهذه النسب المتدنية التي يحرزها الجالسون للامتحان تشكل برهاناً على تعدي الكثيرين على هذه المهنة، ممن لا يملكون الموهبة ولا المؤهل الأكاديمي، فالتحقوا بالصحافة حين لم يجدوا مجالاً آخر يؤهلهم إليه تحصيلُهم الأكاديمي المتدني، أو اضطروا إليها حين أَوصدت المهن الأخرى أبوابها في وجوههم، والدليل على ذلك أن نسبة نجاح الجالسين لامتحان القيد الصحفي من الكليات غير الإعلامية عام ٢٠١١م بلغت ٥٨%، مقارنة بنجاح طلاب الإعلام الذين لم تتجاوز نسبة نجاحهم ٣٦% كما ذكرنا؛ مما يدلل على أن كثيراً من الصحفيين يلتحقون بهذه



المهنة دون رغبة منهم، والواقع يؤكد أن كثيراً من الصحفيين الذين برزوا اليوم ليسوا من خريجي كليات الإعلام.

وفي رأيي أنه لكي تخرج الصحافة السودانية من سردابها المظلم لا بد للقائمين على أمرها من وضع ضوابط لإصدار الصحف والالتحاق بالمهنة، فالصحيفة لا بد أن تستوفي الشروط المهنية حتى تصدر، كما أن الصحفي لا بد أن يحقق الحد الأدنى من التأهيل الذي يتيح له مزاولة المهنة، ويجب ألا تصدر الصحيفة ما لم تتوفر لها الإمكانات المادية الكافية للصدور؛ فإنتاج الإعلام القوي يحتاج إلى مال؛ ولا يمكن للإعلام أن يتطور ويثبت وجوده ما لم تُهيأ له الوسائل والمعينات اللازمة.

وحبذا لو حددت الجهات المسؤولة حداً أدنى للأجور بالنسبة للصحفيين يكفل لهم الحياة الكريمة، ويجعل مهنة الصحافة مهنة جاذبة؛ حتى يلتحق الطلاب بكليات الإعلام عن رغبة، ويختار الذين يلتحقون بمهنة الصحافة هذا المجال عن قناعة، لا كما هو الحال، حيث لا يلجأ للعمل بالصحافة - في أغلب الأحيان - إلا من اضطر إليها حين لم يجد مجالاً آخر يلتحق به!

لو نجحنا في تحقيق تلك الإجراءات، فسيلتحق بالصحافة المتفوقون والموهوبون الراغبون بها فعلاً؛ ويرتفع مستوى الصحف ارتفاعاً نوعياً؛ فتكون المحصلة تطوير المهنة والرقي بها إلى آفاق تجعل الصحافة تضطلع بدورها في نهضة الأمة وبناء المجتمع.



معهد اللغة العربية للناطقين بها..!!

إن النَّاظر في حال اللغة العربية اليوم يوقن أن هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، وشكلت وعاء لثقافة الأمة وسمة من سمات وجودها وكينونتها في طريقها إلى التهافت والتميع، إن لم نقل الزوال والتلاشي.

حين ترثي اللغة نفسها:

المعروف أن اللغة تشكل أحد أكبر مكونات الثقافة – إن لم تكن أكبرها – وملمحاً أساسياً من ملامح الهوية، ولكن التراجع الذي تشهده اللغة العربية على مستوياتها كافة، سواء كان على مستوى المؤسسات التعليمية، أو أجهزة الإعلام، أو الإنترنت، يستدعي اتخاذ إجراءات وتحوطات تعيد للغة هيبتها، وللأمة هويتها وثقافتها.

ولا أجد وصفاً أبلغ لحال اللغة العربية اليوم من أبيات الشاعر حافظ إبراهيم:

رَمَوني بعُقمٍ في الشَّبابِ وليتَني   عَقِمتُ فلم أجزَعْ لقَولِ عِداتي

وَلَدتُ ولما لم أجِدْ لعرائسي   رِجالاً وأَكفاءً وَأَدْتُ بناتِي

وسِعتُ كِتابَ اللهِ لَفظاً وغايةً   وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعِظاتِ

فكيف أضِيقُ اليومَ عن وَصفِ آلةٍ   وتَنْسِيقِ أسماءٍ لمخْترَعاتِ

لغة التعليم:

تراجع اللغة العربية تشهد له المناهج التي تُدرَّس في مؤسساتنا التعليمية، فهذه المناهج تعاني من التخبط والتعقيد وغياب الأهداف الواضحة، كما أنها لم تتجاوز الوسائل التقليدية في التدريس، متغاضية عن استصحاب الوسائل الحديثة التي تجعل من عملية التعلُّم عملية تفاعلية جاذبة، يشارك فيها المعلم والمتعلم على السواء، لا مجرد عملية تلقينية، تُشعر المتعلم بصعوبة اللغة، ومشقة التعاطي معها.



وفي مقابل تراجع مستويات الطلاب في مادة اللغة العربية في المدارس، نجد ازدياداً في إقبال أولياء الأمور على إلحاق أبنائهم بالمدارس الإنجليزية، بينما تشهد الجامعات زهداً في اختيار اللغة العربية كمادة للتخصص إذا قورنت باللغات الأخرى التي تجد سوقاً رائجة.

لغة الإعلام:

تشهد لغة الإعلام اليوم - سواء كان مقروءاً أو مسموعاً أو مرئياً - بما وصلت إليه اللغة العربية من تراجع وانحطاط، فالأجهزة الإعلامية تعج بالأخطاء النحوية والإملائية والمطبعية، إضافة إلى أخطاء الأسلوب والصياغة؛ مما يعني انصراف هذه الأجهزة عن الاهتمام بمستوى اللغة العربية الذي كان من أهم السمات التي تميِّز الأجهزة الإعلامية الرصينة.

والواقع الإعلامي اليوم يومىء بوضوح إلى غياب دور التأهيل والتطوير لمقدرات الإعلاميين في مجال اللغة العربية، ويوضح أن إجادة اللغة العربية لم يعد شرطاً أساسياً للمتقدمين لشغل الوظائف الإعلامية.

وما دامت الأجهزة الإعلامية تؤثِّر على قطاعات واسعة في المجتمع، فإن واقعها يؤكد ما ذهبنا إليه من التراجع العام في مستويات اللغة العربية.

لغة الإنترنت:

المتأمل في اللغة المتداولة في كثير من مواقع الإنترنت والمنتديات وغرف الحوار، يجد إما تمييعاً للغة العربية، أو محاولة لإيجاد لغة بديلة لها.

فمع ما يعج به الإنترنت من أخطاء لغوية يصعب حصرها وضبطها - لما يتمتع به من حرية في النشر والتعبير لا توجد في أجهزة الإعلام- نجد استخداماً مفرطاً للغة الدارجة، مما يجعل التواصل أمراً عسيراً بين منسوبي الدول العربية الذين تعتبر اللغة الفصيحة لغة التواصل بينهم؛ مما يفضي إلى خلق لغة موغلة في المحلية.



كما تطفو على السطح لغة جديدة – خاصة في مواقع الحوار – تستعيض عن حروف اللغة العربية بالأرقام والرموز الإنجليزية؛ وهذا يعني إضعاف التواصل مع اللغة العربية وتنصلاً من الاعتداد بها.

الدول المتقدمة واللغات:

ما من دولة متقدمة إلا وهي تعتزُّ بلغتها، وتعمل على المحافظة عليها وتطويرها لتواكب مستجدات العلوم ومستلزمات العصر، كما تصرُّ على التدريس بلغتها في مدارسها وجامعاتها؛ وتنشط في المقابل في ترجمة ما استجدَّ من العلوم والآداب، وتُنفق الأموال الطائلة لتعليم هذه اللغة للشعوب الأخرى؛ لأن تعلم لغتها يعني التأثر بثقافتها، والتعاطف مع توجهاتها، وفتح الأسواق لسلعها ومنتجاتها.

بل إنَّ بعض هذه الدول يلزم أصحاب الشركات والمحلات التجارية بكتابة اللافتات بلغتها الرسمية، لا كما نجد في بلادنا من خلو لافتات بعض المؤسسات والمحلات التجارية من اللغة العربية. وفي بعض هذه الدول لا يجيبك المواطنُ إذا تحدثت إليه بلغة أجنبية، رغم علمه بها، أما في بلادنا فنجد من يجاري الآخرين في لغتهم، وإذا تحدث بالعربية فَاخَرَ بإدخال كلمات أجنبية وسطها، حتى وإن لم يستدعها السياق، ولم يتطلبها التوضيح!

الاستلاب الثقافي والتبعية للآخر:

في مقابل اعتزاز الشعوب الأخرى بلغتها ومحافظتها عليها وسعيها إلى تطويرها، نجد عزوفاً عن تعلُّم اللغة العربية من الناطقين بها، وإقبالاً على تعلُّم اللغات الأخرى، ليس لتُتَّخذ وسيلة للعلم والمعرفة، ولكن باعتبارها غاية في حد ذاتها. وهنا يبرز دور الاستلاب الثقافي والتبعية للآخر الناجمين عن إحساس بالدونية وفقدان للهوية.

ولعل أكبر مظاهر الاستلاب والتبعية: الإقبال على تعلُّم العلوم بلغات أجنبية، على نحو ما نجده في كثير من الجامعات والمدارس في بلادنا؛ إذ أن هناك فرقاً بين تعلم



اللغات الأخرى كوعاء للتعرف على ثقافة الآخرين والتواصل معهم، وبين تعلُّم العلوم بلغة أجنبية؛ فالأول يضيف إلى اللغة الأم والهوية، والثاني يضعف اللغة الأم ويمسخ الهوية!

مجهود رسمي وشعبي:

هناك جامعات أثبتت نجاحها على مستوى العالم، ونافس طلابها غيرهم في التميز الأكاديمي، بالرغم من تدريسها للعلوم باللغة العربية؛ وهذا يؤكد أن العيب لا يكمن في اللغة بقدر ما يكمن في التعاطي معها.

والعلاج – في رأينا – يكمن في بذل مجهود رسمي وشعبي للمحافظة على اللغة، وتطويرها، وتعزيز ثقة المواطن بها، باعتبارها من أكثر اللغات ثراءً وسعة؛ وذلك بإنشاء معاهد ومراكز بحثية وتدريبية لتقوية مهارات التخاطب والكتابة باللغة العربية تستهدف الإعلاميين والموظفين والطلاب وغيرهم، إضافة إلى تعزيز دور المجامع اللغوية، ودعمها حتى تطوِّر اللغة وتجعلها مواكبة للمستجدات العصرية، فضلاً عن دعم مراكز الترجمة لتضطلع بدورها في ترجمة العلوم والمعارف والآداب المفيدة إلى اللغة العربية.

حين ترثي اللغة نفسها..!!

قال لي أحدهم متفلسفاً ومتحذلقاً:

- دايرك تعمل لي تصحيح لَغوي (بفتح التاء).

فأجبته مبتسماً:

- ياخي كلمة لَغوي دي ذاتها محتاجة لتصحيح؛ لأن الصحيح لُغوي (بضم اللام) وليس (لَغوي) بفتحها.

ولكن كبريائي في ذلك اليوم اهتزّ حين التقيت بأحد المتخصصين في اللغة العربية (دكتوراة في اللغة العربية) فأخطأت في كلمة، فكان أن قال لي في استنكار - وقد كان يعرف اهتماماتي اللغوية-:

- يا زول؟!

فقلت له معتذراً:

- معليش (زِلة) لسان (بكسر الزاي).

فقال لي باستنكار أشد:

- زِلة لسان ولا (زَلة) لسان؟!

فكان أن بُهِتُّ ولم أحر جواباً!

والحق يقال إن كثرة الأخطاء اللغوية التي تواجهنا في حياتنا اليومية تجعل أعتى جهابذة اللغة العربية يزهد في تصحيح الآخرين من كثرة ما يجد من أخطاء في وسائل الإعلام المختلفة، وعلى لافتات المؤسسات والمحلات التجارية، وعلى ظهر المركبات العامة والخاصة؛ مما يوميء، بما لايدع مجالاً للشك، بأن لغتنا تعيش غربة حقيقة بين أبنائها؛ لذا لم يكن مستغرباً أن ترثي أبناءها الذين وأدوها حيّة .- كما قال حافظ إبراهيم في قصيدته المشهورة التي تصوِّر حالة العزلة التي تعيشها لغتنا بين ظهرانينا!

أخطاء في مخارج الحروف، وأخطاء إملائية، وأخطاء في القواعد يشيب لها الولدان، ولو رأى أساطين اللغة العربية من أمثال سيبويه والخليل بن أحمد الفراهيدي وابن منظور ما وصلت إليه لغتنا لأصيبوا بالغثيان، وقدموا استقالتهم من الاشتغال بفنون اللغة والبيان!

صار من الطبيعي أن ترى صاحب حافلة يعلِّق على ظهرها ملصقاً كُتب عليه: (تحزير: وقوف متكرر) بالزاي وليس الذال، وأن تقرأ لافتة لصاحب محل كتب عليها: (رزاز) بالزاي وليس بالذال!

ولم نعد نستغرب أن نسمع مذيعاً أو مذيعة تعيث في اللغة فساداً، فتنصب الفاعل وتكسر (عنق) المفعول به، وتفتح (النار) على المجرور! إلى غير ذلك من جمع (التفطيس) و(التهريس)!

ومما يثير الامتعاض والألم حقاً أن أحد الذين كتبوا عن الأخطاء اللغوية في الصحف طُبع مقاله حافلاً بالأخطاء اللغوية، فكان دليلاً دامغاً على حجم المأساة التي تعيشها لغتنا!

كل الأمم التي بلغت من الحضارة شأواً بعيداً كان للغة نصيب وافر من اهتماماتها، فتجدها قد سعت لإنشاء مراكز البحوث والترجمة والمجامع اللغوية والكليات والمعاهد التي تعمل على المحافظة على كيان اللغة وتطويرها لتواكب المستجدات العلمية والثقافية؛ أما نحن فاللغة في بلادنا تعاني الأمَرَّين حين رماها أبناؤها المستلبون ثقافياً بالعجز عن مواكبة التطوُّر واستيعاب الجديد!

الأمة التي لا تعتني بلغتها أمة فاقدة لهويتها، مُسخت ثقافياً، وفقدت بوصلة الانتماء حين أدارت ظهرها لموروثاتها والدرر الثمينة التي تكتنزها لغتها التي يكفيها شرفاً وتيهاً أن الله اصطفاها من بين سائر اللغات لتكون وعاءً لكلامه وقرآنه الكريم؛ فهي أمة لم تتقن لغتها، ولا هي أجادت لغة الآخرين! والله المستعان.

أخطاء في مقال عن الأخطاء..!!

وأنا أطالع عمودي في صحيفة (المحرر) - كعادتي حيث أقف على سلامة ما جاء فيه وموافقته لما كتبته - فوجئت بوجود خطأ لغوي، ولكن هذا الخطأ كان فادحاً بكل المقاييس؛ لأنه ببساطة ورد في موضوع ينتقد الأخطاء اللغوية وتراجع مستوى اللغة العربية في بلادنا!

ولكن ما زاد الطين بلّة أن اتصل بي أحد القراء الضليعين في مجال اللغة العربية ليلفت انتباهي إلى خطأ آخر وقع سهواً، فكان أن شعرت حينها بالحرج الشديد؛ لوقوع خطأين لغويين في موضوع لا يحتمل الأخطاء اللغوية؛ ولذلك كان لا بد من الاعتذار إلى القراء.

ولكنني أحمِّل أخي الأستاذ حسام الدين صالح مدير تحرير صحيفة المحرر بعض المسؤولية؛ لاستعجاله لنا أحياناً لكتابة الأعمدة؛ مما يجعلني أسرع في كتابته، وبالتالي تزيد نسبة وقوع الأخطاء، حتى وإن كانت هذه الأخطاء في موضوع يتحدث عن الأخطاء في اللغة العربية!

وبالرغم من أنني أطبع مقالاتي بنفسي على الحاسب الآلي فقد سارعت إلى النسخة المحفوظة في جهازي لأقارن بينها وبين ما جاء في الصحيفة، وأنا أمنِّي نفسي بأن يكون الخطأ صادراً من مصحح الصحيفة، ولكن هيهات! فلم يكن هنالك بُدٌّ من الاعتراف بالمسؤولية الكاملة عن الخطأين اللذين وقعا في غمرة الاستعجال للحاق بالتصميم قبل فوات الأوان، كما يقول بذلك دائماً الأخ مدير التحرير.

ولكن لحسن حظي أنني لم أبرِىء نفسي في المقال من الأخطاءِ اللغوية، بدليل أنني أوردت قصتي مع أحد المتخصصين في اللغة العربية، وكيف أنني أخطأت خطأً



فاستنكره، فقلت له: زِلة لسان (بالكسر)، فقال لي: زَلة لسان (بالفتح) وليس زِلة لسان! فكان تصحيحه تصحيحاً لتصحيحي!

ولكنني أعود فأقول: إنني لم أعنِ بمقالي السابق الأخطاء اللغوية التي تقع سهواً، بل عنيت به الأخطاء التي تقع عن جهل فاضح أو استهتار باللغة، ولا سيما إن كانت هذه الأخطاء تُكتب على الملأ، سواء على المركبات أو واجهة المحلات، من أمثال الخلط بين حرفي الذال والزاي مثل (تحزير) و(رزاز)، أو ما يرد في أجهزة الإعلام من أخطاء فادحة على لسان إعلاميين يُفترض فيهم الإلمام بأبسط قواعد اللغة العربية.

وأضيف لما ورد في المقال السابق أن مما يثير الامتعاض أن يتجه أصحاب المؤسسات والمحلات إلى اختيار أسماء أجنبية لا تمت لثقافتنا وواقعنا بصلة، بينما نجد أن اعتزاز المواطن بلغته في دول الغرب وصل إلى أن يرفض التحدث إليك بلغة غير لغته، وإن كان يفهم اللغة التي خاطبتَه بها! بينما تمنع بعض الدول الكتابة على المؤسسات والمحلات بغير اللغة الرسمية للبلاد، إلا أن تكون ترجمة للغة الرسمية!

وختاماً، نحن أولى من غيرنا أن نحتفي بلغتنا، وأن ننزلها منزلتها من الإكرام الذي خصها به الله سبحانه وتعالى من بين سائر اللغات.



محكمة السلامة اللغوية

أُصبتُ بالإحراج حين علَّق أحد الإخوة العرب على كتابتي لحرف الفاء في نهاية الكلمة، حيث ذكر لي أن كتابته بهذه الطريقة خطأ، فسألته في دهشة تلقائية:

– وهل هناك فرق في كتابة الفاء والقاف غير النقطة؟!

– بالطبع الفاء تكتب هكذا (ف) والقاف هكذا (ق).

وأخذ يوضح لي الفرق بين الحرفين في بعض المطبوعات، حتى أيقنت أنه على حق؛ فحرف الفاء يُمَد إلى اليسار مباشرة بمجرد رسم دائرته بخط شبه مستقيم (ف)، أما القاف فترسم دائرتها ثم يخرج منها خط ليشكل ما يشبه نصف الدائرة (ق).

وزاد حرجي حين قال لي صاحبي مستنكراً:

– أنت مهتم بالثقافة والأدب، فكيف لا تعرف الفرق بين كتابة الفاء والقاف؟!

فأجبته في استحياء:

– ماذا أفعل؟! لم أدَرَّسْ في المدارس هذا الفرق، ولم يخبرني أحد به!

وما زال كلام ذلك الصديق عالقاً في ذهني حتى قررت أن أختبر الناس في الفرق بين الحرفين، فسألت أحد زملائي الموظفين، ثم موظفاً آخر، ثم زوجتي، و...و...و.....، وكان انطباع الجميع واحداً (الدهشة)، بل كابر بعضهم وأنكر بشدة أن يكون هناك فرق بين الفاء والقاف سوى النقطة، حتى أثبتُ له من خلال كتاب أو صحيفة صدق ما ذهبت إليه!

إذاً الخطأ لم يكن في أستاذ اللغة العربية كما ظننت، أو في المدرسة، بل في نظام تعليم اللغة العربية بأكمله؛ وليس هذا الإشكال قاصراً على الفرق بين القاف والفاء في الكتابة فحسب؛ فما زال أغلبنا حتى اليوم لا يفرق في النطق بين القاف والغين، وبين



الثاء والسين، ولا يفرق في النطق والكتابة بين الذال والزاي، فما زلنا نكتب (رزاز) مع أن الصحيح (رذاذ) و(نفاز) بدلاً من (نفاذ)، وغير ذلك من الأخطاء التي تتفتت لها الأكباد في وسائل الإعلام، والمركبات، ولافتات المحلات، وصفحات الإنترنت.

ونظراً لكثرة الأخطاء التي عاجت بها لغتنا العربية وماجت؛ توصلت إلى فكرة مفادها إنشاء (محكمة السلامة اللغوية) على غرار (محكمة الملكية الفكرية) لحماية اللغة العربية من الانتهاكات المستمرة، ومحاكمة كل من يكتب كتابة خاطئة في الشارع العام، سواء في حافلة أو لافتة أو صحيفة بدفع غرامة معتبرة عن كل خطأ يرتكبه. وليس هذا غريباً فبعض الدول الغربية تمنع الكتابة بغير لغتها في الشارع العام، إلا إذا كانت ترجمة مصاحبة للغتها، وبعض مواطنيها يمتنعون عن الحديث معك إذا تحدثت بغير لغتهم، بالرغم من إجادتهم للغة التي تتحدث بها؛ وكل ذلك حفاظاً على اللغة والثقافة والهوية، فمن باب أولى أن نحافظ على لغة القرآن الكريم والهوية الإسلامية، فهي أشرف اللغات وأكثرها ثراءً.

كما أقترح إضافة مادة (مخارج الحروف) في مرحلة الأساس لتحسين مستوى النطق بالحروف العربية لدى النشء، إضافة إلى مادة (الخط العربي) لتحسين مستوى الخط ورسم الحروف بالطريقة الصحيحة، إضافة إلى تأهيل الأساتذة؛ حتى يكونوا في مستوى تدريس اللغة العربية، وتطوير مناهج اللغة العربية وطرق تدريسها؛ حتى يقبل عليها الدارسون والباحثون، فيستخرجوا دررها وكنوزها الثمينة.



مرافئ الحياة
وشرفات التميز

دجالون في شوارع الخرطوم..!!

اتصل بي أحدهم وقال لي:

- أنا الشيخ فلان.

فرحبت به، فقال دون مقدمات:

- لقد رأيتك في المنام، وأنت رجل مبروك!
- أهه!
- عليك أن تقرأ سورة الإخلاص خمس عشرة مرة.
- ولماذا خمس عشرة مرة تحديداً؟!
- فقط اقرأها واتصل بي بعد ذلك؟
- هل لديك دليل على هذا العدد؟
- لا، فقط اقرأها واتصل بي.
- إذا لم يكن لديك دليل، فهذا يعني أن هذا العمل بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، كما قال رسول صلى الله عليه وسلم.

انقطع الاتصال...

سجلت الرقم، وكتبت عليه (الدجال)!

ذكرني ذلك الموقف بموقف مماثل حدث لاثنتين من أقربائي، ولكن نتيجته كانت مختلفة، إذ ادَّعى أحدهم أنه تلميذ لأحد المشايخ المعروفين، وذكر أنه رأى إحداهما في المنام، وطلب منها تحويل قيمة مبلغ مالي في جواله، ومن ثم عليها فقط فتح دولاب الملابس، وحينها ستجد ما يسرها!

وهكذا أخبرتْ قريبتها في سرور بذاك الاتصال الذي سيجلب لهما الخير، واتفقتا على تحويل قيمة المبلغ المطلوب إلى جوال ذلك الرجل.



وبالفعل حوَّلت الفتاتان المبلغ وانتظرتا النتيجة والآمال تتقاذفهما بحياة هانئة وعيش رغيد!

ومن ثم سارعت كلتاهما لفتح الدولاب وإلقاء نظرة ملؤها اللهفة عليه، فلم تجدا شيئاً جديداً يذكر مما وعد به ذلك الرجل! فانتظرتا لعل البُشرى تتأخر قليلاً، ولكن طال انتظارهما؛ لتدركا أخيراً أنهما وقعتا فريسة سهلة لأحد الدجاجلة المحترفين، بالرغم من كونهما خريجتين لجامعتين عريقتين! و(القلم ما بزيل بَلَمْ) كما يقولون!

وذكرتُ أيضاً أن أحدهم كان يوزع ورقة يدَّعي شخص فيها أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم، وأمره بأن يخبر بذلك كل من وجده، ويطلب منه أن ينسخ هذه الورقة عشر نسخ، فمن فعل ذلك وجد ما يسره، ومن امتنع فسيصيبه مرض خطير! فطويت الورقة ولم أكترث بما فيها، وأخبرت من كان يقف بجواري أن هذا الأمر لا يعدو أن يكون دجلاً وهرطقة!

وتحمل الصحف أنباءً عن ظهور طفل صغير رأى رؤيا منامية، تخبره بأن بإمكانه مداواة جميع الأمراض، فصدقه الناس، وذاع صيته بينهم، وحسبوه من الأولياء الصالحين، فأخذ المرضى يتقاطرون على منزله من كل حدب وصوب، حتى خُصِّصَت مواصلات تنقل القادمين إليه من جميع أصقاع البلاد! وأخذ الناس يزورونه، ويطلبون العلاج عنده، فطفق يصف الأدوية كما يحلو له؛ ليصاب البعض بمضاعفات، ويكاد البعض يفقد حياته، فانفض الناس عنه، حين أدركوا – بعد فوات الأوان – أن لا علاقة له بالولاية الصالحة، ولا بالطب!

هذه الحوادث المتكررة أثبتت لي كيف أن الدجل والشعوذة يجدان موطئ قدم راسخة في مجتمع تسود فيه الخزعبلات، ويتلقى دينه الذي أكمل النبي صلى الله عليه وسلم رسالته، يتلقاه من الرؤى المنامية والبدع والافتراءات، ويكفي كما قال الشيخ محمد سيد حاج رحمه الله أن يخرج (دجيجيل) — وليس دجالاً — فيتبعه الناس!



إنَّ هؤلاء الدجالين والمشعوذين ما كان لهم أن يعيثوا فساداً في مجتمعنا لو لم يجدوا من يشجعهم، وما كان لهم أن يتمادوا في غيِّهم لو لم يجدوا من تنطلي عليه حيلهم من البسطاء والسذج، لو لم يجدوا المجتمع جاهلاً بعقيدته وأبجديات دينه التي تؤكد أن الوحي توقف بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الرؤى المنامية لا يمكن أن تشكل تشريعاً لدين اكتملت أركانه ودعائمه.

إن الفرد الموحِّد لله تعالى الذي لا يتوكل، ولا يخشى، ولا يخشع، ولا يستغيث، ولا ينادي، ولا يدعو إلا الله جل وعلا، لا تنطلي عليه مثل هذه الحيل الواهية، أما المجتمع الذي لا يعرف دينه ويجهل عقيدته القائمة على إفراد الله عزَّ وجلَّ بالعبودية وإفراد النبي صلى الله عليه وسلم بالاتباع، فإنه — وإن نال أرفع الدرجات العلمية وحصل على أعلى الشهادات الأكاديمية - يصدِّق كل ما يُقال له في أمر الدين، ويخاف من كل شيء، حتى من ظله!

ختاماً، نأمل من الدعاة والمصلحين أن يكثفوا جهودهم في نشر العلم الشرعي، وتصحيح العقيدة، وتوعية الناس بأمور دينهم، وتحذيرهم من الدجل والشعوذة، كما نرجو من الجهات المسؤولة حماية المجتمع من أمثال هؤلاء الدجاجلة، وتوقيع أقصى العقوبات عليهم؛ حتى يُزجروا عن استغلال البسطاء وابتزازهم، ويكونوا عبرة لغيرهم من ضعفاء النفوس.



كاد (المورينجا) أن يكون طبيباً..!!

في أحد مواقف المواصلات المزدحمة وقع نظري على سيارة (أمجاد) ألصق صاحبها على جانبيها ملصقات كادت تحجب السيارة من كثرتها، وينبعث من داخلها – عبر مكبر للصوت – صوت دعائي مسجَّل، فاقتربت من تلك السيارة وأخذت أقرأ في القائمة الطويلة من الأمراض المكتوبة، تلك القائمة التي لم تدعْ مرضاً أعرفه ولا أعرفه إلا أوردته!

وحين استبنتُ الأمر عرفت أن المعنيَّ بهذه القائمة الطويلة هو (المورينجا) الذي يرى من ألصق الملصقات أنه يعالج كل الأمراض المذكورة! حينها تساءلت في نفسي: إذا كان نبات (المورينجا) الذي جاء في موسوعة ويكيبيديا أنه هو (البان، والاسم العلمي له (Moringa): جنس نباتي يتبع الفصيلة البانية من رتبة الكرنبيات)، إذا كان هذا النبات يعالج كل هذه الأمراض، فما الداعي لوجود الأطباء والصيادلة، وهذا الزخم من المستشفيات، والعيادات، والصيدليات، وكليات الطب والصيدلة؛ ما دام (المورينجا) يغني عن جميع هؤلاء؟!

وذكرني هذا الموقف بمقال طريف كنتُ قد نشرته عام ٢٠٠٩م في مجلة (الحياة العلمية) بعنوان (وداعاً أيها الأطباء!)، يتحدث عن اختراع يسمى (نظام الخبراء)، وهو عبارة عن برنامج للكمبيوتر به حوالي ٨٠٠ رقم يمكن للمرضى الاتصال بها ليتحدثوا إلى جهاز الكمبيوتر الذي يأخذ التاريخ المرضي والأعراض، وما إلى ذلك، ثم يصف علاجاً منزلياً، مثل الغرغرة بمحلول الملح أو تناول قرص إسبرين، وغير ذلك؛ فتساءلت حينها: هل هذا الاختراع بداية للاستغناء عن الأطباء؟

وأذكر أننا استكتبنا فضيلة الشيخ الدكتور حسن أحمد الهواري لمجلة (صحتك)، فكتب لنا مقالاً ماتعاً جمع بين الغرابة والجاذبية، عنوانه: (شقاطيث ولا مأمون لها)، وقد أثار عنوان المقال وموضوعه جدلاً واسعاً وسط قراء المجلة، فقد كان يتحدث عن فوضى

العلاج بالأعشاب، وأنها لا تقوم على أسس علمية صحيحة، بدليل القصة التي كانت مناسبة عنوان المقال، وهي أن أحد الكيميائيين ذكر للخليفة المأمون أن آفة الكيمياء: الصيادلة (وهو الاسم الذي كان يطلق على العشّابين)؛ لأنهم يدَّعون علاج كل الأمراض حتى لو لم يعرفوها أو لم يكن عندهم دواء لها، وجاء بفكرة مبتكرة، وهي أن يقترح كل واحد حرفاً ويجمعوا الحروف ليكوِّنوا منها كلمة، فكان حاصل جمع الحروف كلمة (شقاطيث)، ثم ذهب كل واحد من الذين جمعوا الحروف إلى عشّاب من العشابين فسأله عن دواء لمرض (شقاطيث)، فكانت المفاجأة أن أكّد كلُّ عشاب بأنه يعرف المرض، ولم يكتفِ بذلك بل قدم كل منهم دواءً لهذا المرض، مختلفاً عن الآخر!

وحين رأى الخليفة المأمون ذلك أيقن بفداحة الأمر وخطورته، فأصدر مرسوماً بإيقاف مزاولة هذه المهنة (غير الشريفة)، وبعدم السماح لأحد بمزاولتها إلا بعد خضوعه لامتحان يُعرف فيه الخبراء من الأدعياء.

يقول الشيخ د. حسن الهواري في المقال المشار إليه آنفاً: (هذا في عصر المأمون في القرن الثاني الهجري، فكم في عصرنا من شقاطيث ولا مأمون لها. وقد انفصل علم الصيادلة في هذا العصر عن العشابين، خاصة في البلاد العربية، فصار الصيدليُّ هو من درس علم الصيدلة وتخرج في كلياتها، أما العشاب فهو من يدَّعي المعرفة بالأعشاب ويعالج بها، والغالب في هؤلاء أن ينتحلوا هذا الفن من غير علم ولا دراية ولا أستاذ يتخرجون على يديه)[1].

ومما يذكر أنني كنت أعاني من آلام في البطن، فشكوت ذلك لأحد العشابين الذين ينتشرون في شوارع (السوق العربي) وأزقته وأسواقه، فسرعان ما أعطاني عشباً مسحوناً أخضر اللون، لا أعرف اسمه، ووصف لي طريقة استعماله ومواقيته، وبالفعل تناولته، فلم يجدِ نفعاً بالطبع، ولكني حمدت الله تعالى أنه لم يزد بطني ألماً على ألم!

(١) (مجلة (صحتك) – العدد ١١ – ص ٤٠).



ولم أرد بما سبق إنكار أهمية العلاج بالأعشاب أو ما يعرف بـ(الطب البديل)، فهو علم من العلوم التي بلغت شأواً بعيداً، وصار له أصوله وعلماؤه ومتخصصوه وكلياته ومعاهده، ولكنني قصدت التنبيه إلى خطورة ترك الحبل على الغارب للدخلاء على هذا العلم والمرتزقين من ورائه ليمارسوا هذه المهنة دون علم؛ فيضروا بصحة الناس، ويبتزوا أموالهم دون مقابل.

وهذا يعظِّم دور القائمين على أمر الصحة في البلاد، ويقضي بأن يسنُّوا القوانين التي تحمي المواطن من استغلاله تحت ستار العلاج بالأعشاب، كما لا بد من تفعيل هذه القوانين لتصبح سارية ونافذة تطبق على كل مخالف دون تمييز، فكثير من القوانين سُنت، لكنها لم تُفعَّل، أو حصل في تطبيقها تهاون، فأصبحت حبراً على ورق!

وعلى الناس أن يأخذوا حِذرهم من هؤلاء الدجالين، فلا يلجؤوا إذا ألمَّ بهم مرض إلا إلى الثِقات أولي الخبرة والدراية.



التسوُّل في الخرطوم: مهنة من لا مهنة له..!!

(أنا ماشي الخرطوم يا شاحد يا مشحود) هذه العبارة كانت تعليقاً على كاريكاتير يعالج ظاهرة التسوُّل التي استشرت في الخرطوم على نحو مزعج.

(التسول مهنة من لا مهنة له)، هذه العبارة أبلغ وصف - في رأيي - لظاهرة التسول التي اتخذها الكثيرون مهنة تغنيهم عن مشقة العمل وطلب الرزق؛ ليرضوا بمهنة أقل ما توصف به أنها مهنة هامشية، لا تدفع عجلة الإنتاج، ولا تدعم مسيرة التنمية، غير ما فيها من إراقة ماء الوجه، وسؤال من يعطون أو يمنعون!

كثير من القصص والأخبار تُروى وتقرأ على صفحات الصحف عن متسولين وشحاذين ماتوا وبحوزتهم ملايين الجنيهات المكنوزة في غياهب الحفر، وتحت ركام البيوت المهجورة؛ فلا هم استفادوا منها، ولا استفاد منها غيرهم!

والمشكلة أن كثرة المتسولين والشحاذين قد ثبطت همم الكثيرين من الصدقة؛ فصاروا ينظرون إلى من يسألون الناس في المساجد والطرقات بكثير من الريبة والتشكك؛ فذات الرجل الذي يطلب المساعدة في المسجد قد تصادفه في عدة مساجد يطرح ذات المشكلة التي طاف من أجلها كثيراً من المساجد، ولو كان صادقاً لكفاه مسجد أو مسجدان، وذات المرأة التي تحمل طفلها أو طفلتها الباكية أمام المسجد، قد تدرك فيما بعد أنها اتخذت من التسوُّل وسيلة لطلب الرزق عقب الصلوات الخمس بشكل يومي! وذات الرجل أو المرأة التي تقابلك وهي تحمل في يدها روشتة دواء، قد تجدها في ذات المكان وتحمل ذات الروشتة في اليوم التالي لتبحث عمن يمد إليها يد العون! والشخص الذي يقول لك أحتاج فقط إلى جنيه واحد للمواصلات، تعطيه ثم تلتفت إليه بعد لحظات فتفاجأ به يقول نفس الكلام لشخص آخر!



وهكذا صار البعض يتفنَّنون في استدرار العطف من القلوب، ومن ثم استخراج الأموال من الجيوب؛ فمنْ رجلٍ يسبق مسألته بموعظة تتخللها آيات لا يحسن قراءتها، وأحاديث نبوية لا يدري مدى صحتها، ومن آخر يعقب مسألته بالبكاء، أو بتلاوة القرآن، أو بالدعاء للمسلمين والمسلمات!

ولا يعني هذا بالطبع أن كلَّ من يسأل الناس بالضرورة يسألهم إلحافاً، فقد يضطر كثيرون تحت وطأة الحاجة والفقر المدقع الذي يخيِّم على أجزاء واسعة من بلادنا إلى سؤال الناس.

ولعلَّ أكثر ما يثير الانتباه ظاهرة توزيع المتسولين على إشارات المرور على نحو يوحي بوجود تنظيم يحرِّك هؤلاء المتسولين الذين يبدؤون عملهم يومياً منذ الصباح الباكر وحتى منتصف الليل، يوقظون شفقة الناس بأطفال محمولين على الظهور، أو بإعاقة حركية، أو أطراف مبتورة!

والسؤال الذي يكشف عن نفسه هو: أين هو دور الجهات الحكومية المسؤولة من وزارات الرعاية الاجتماعية والإرشاد والأوقاف وغيرها، إضافة إلى مؤسسات المجتمع المدني ذات الصلة؟ ولماذا لا تُعالج هذه الظواهر السالبة بإيجاد مؤسسات تتبنى المتسولين والمتشردين الذين اكتظت بهم شوارع الخرطوم، فتستوعبهم لتعيد تدريبهم وتأهيلهم وتغيير سلوكهم؛ بحيث يصبحون أعضاء فاعلين ومنتجين في المجتمع؟!

ظاهرة انتشار المتسولين والمشردين أصبحت بالفعل ظاهرة مزعجة، بل وتبعث على الحزن والاستياء من مجتمع يعجز عن استيعاب أبنائه، بل ويلفظهم إلى أتون الحاجة والسؤال، وتومئ في الوقت نفسه إلى الأمراض الاجتماعية التي نخرت عظام مجتمعنا الذي انحسرت فيه معاني التراحم والتكافل؛ فاضطر الكثيرون إلى سؤال من يعرفون ومن لا يعرفون؛ كما تشير إلى اتساع البون بين طبقات المجتمع الذي ازداد فيه الأغنياء غنىً، والفقراء فقراً، بينما كادت الطبقة الوسطى فيه أن تتلاشى!



وأخيراً، لا أنسى أن أبعث برسالة أخيرة إلى من يسألون الناس أن يتقوا الله ولا يسألوا دون حاجة، وأذكرهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري: (**لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ الْأُكْلَةَ وَالْأُكْلَتَانِ وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنًى وَيَسْتَحْيِي أَوْ لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا**)[١] وقوله صلى الله عليه وسلم: (**لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ**)[٢].

---

(١) رواه البخاري برقم (١٣٨٨).

(٢) رواه البخاري برقم (١٣٨٤).



السكن في أطراف العاصمة: بحث عن الريف المفقود

عندما اقترح والدي رحمه الله شراء تلك القطعة السكنية بأحد أحياء الخرطوم، استنكر كثير من الأقارب هذا المسلك، وعدّوه إهداراً للأموال في ما لا طائل من ورائه، خاصة وأن الأرض تقع في منطقة غير مأهولة بالسكان، إلا من بضع بيوت متفرقة هنا وهناك، تفتقر إلى أبسط الخدمات التي يتطلبها أقل حيٍّ سكني متمدن.

ولكن والدي لم يأبه لتلك المزاعم، وأصرَّ على شراء القطعة السكنية، بل سارع إلى نقل الأسرة للسكن في المنزل الجديد الذي شيَّده، بالرغم من الصعوبات والمخاطر التي قد تواجه الأسرة في هذا الحي الذي يكاد يكون خالياً من السكان!

ولكن ما هي إلا سنوات قليلة حتى قفز الحي قفزات كبيرة من حيث المباني والخدمات، فاستطالت فيه العمارات الفخمة، وانتصبت فيه البيوت الراقية، وشقت الطرق المعبدة شوارعه طولاً وعرضاً!

ورويداً رويداً، صار الحي قبلة للسكان من المهاجرين إلى العاصمة من الولايات أو الذين قضوا سنوات عمرهم في الاغتراب، وارتفعت أسعار القطع السكنية فيه لتبلغ أرقاماً فلكية، وسط دهشة السكان الذين كانوا يرون في كل يوم عمارة تُشيَّد، أو طريقاً يُعبَّد، أو مؤسسة تحط رحالها. وصار الذين كرهوا شراء القطع السكنية بالأمس القريب يعضون على أيديهم من الحسرة والأسف!

ولكن كان الثمن الذي قدَّمه سكان الحي مقابل الحياة المدنية أن يتخلوا عن معالم الريف التي كانت تميِّز هذا الحي وكثيراً من أحياء العاصمة الخرطوم.

ما زلت أذكر تربية الأغنام والدجاج والحمام في المنازل، وأذكر التداخل الشديد بين الجيران حتى أنك تجد جارك أقرب من قريبك عند المحن والملِمَّات، فتتبادل معه الطعام



والأدوات والمعدات المنزلية، وتلجأ إليه في الأفراح والأتراح، كما يقول المثل: (جارك القريب ولا ولد أمك البعيد).

وشيئاً فشيئاً، غزت الحياة المدنية أحياء الخرطوم، وتساقطت أشياء الريف الجميلة أمام المدنية الطاغية، فاختفت تربية الحيوانات المنزلية عندما استعاض السكان عن منتجاتها بالمنتجات المصنعة المعروضة في البقالات الحديثة، وسكن الحي سكان جدد بثوا ثقافة الاستقلال عن الآخرين؛ فإذا التقيت بأحدهم وسألته عن سبب اختفائه تعلل بأنه مشغول!

والواقع أن كثيراً من الجيران استقلوا عن الآخرين حين توفرت لهم وسائل الراحة والترفيه في منازلهم، من مكيفات وفضائيات وأجهزة حديثة؛ فاستغنوا بها عن الجيران، وصارت بديلاً للملتقيات التي كانت تجمع السكان بشكل يومي، بل صارت عند بعضهم بديلاً للصلاة في المسجد! . عياذاً بالله .

ولم يكن غريباً أن يحنَّ الكثيرون إلى حياة الريف، وأن يبحثوا عن أشيائه التي تذكرهم بسنوات الطفولة وذكريات البساطة الخالية من التكلف والجفاء اللذين طغيا على حياة المدينة.. لم يكن غريباً أن يفضل الكثيرون السكن في أطراف العاصمة؛ بحثاً عما فقدوه في وسطها، لما تتميز به تلك الأنحاء من احتفاظ بملامح الريف التي لم يفقدها سكانها بعد.

إنها ليست دعوة مناوئة للمدنية والتقدم، ولكنها دعوة لنعيش الريف في نفوسنا إن لم نستطع أن نعيشه في أحيائنا.. بكل بساطته وشفافيته.. دعوة لنبذ التكلف والتبذل؛ فهما ليسا من الدين في شيء، قال تعالى:﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[1].

[1] [سورة ص: الآية ٨٦].



التعليم في بلادنا: واقع الحال يغني عن السؤال..!!

مما يؤسف له أن التعليم يقع في ذيل أولويات الدول الإسلامية والعربية، بما فيها بلادنا بالطبع، حيث تتذمر وزارات التعليم من شح الدعم، ويعاني الأساتذة والمعلمون من ضعف التأهيل وضعف العائد المادي، وتئن الجامعات والمدارس من تردي البيئة الجامعية والمدرسية، وتشكو المناهج والمراجع من التضارب والتعقيد والندرة وضعف المواكبة للمستجدات.

وزارة التعليم في بلادنا ليست من الوزارات السيادية ذات الأهمية الاستراتيجية، مثل وزارة المالية والداخلية والخارجية والدفاع، وإنما تعد الأموال التي تنفق عليها عبئاً ثقيلاً على ميزانية الدولة، مع أن هذه الميزانية من أضعف الميزانيات إذا ما قورنت بميزانية الوزارات السيادية، فالصرف على قطاعي التعليم والصحة مجتمعين لا يتجاوز ٣% من جملة الميزانية العامة في أحسن الاحوال! مع أن المعايير الدولية تؤكد أن تخصيص ثلث الميزانية للقطاعين يوفر الحد الأدنى من تقديم الخدمة! ووفقاً لتقرير التنمية البشرية الصادر في ٢٠١١م عن برنامج الأمم المتحده الإنمائي جاء السودان متذيلاً قائمة الدول التي تصرف على التنمية البشرية، حيث كان ترتيبه رقم (١٦٩)! ولا غرو في ذلك؛ فالتعليم يأتي في المرتبة رقم (٥٠) في الاستراتيجية القومية الشاملة!

جاء في مجلة (العربي) العدد ٦٢٦: (بين العامين ١٩٠٦ و١٩١١م كان التعليم يستهلك ما يصل إلى ٤٣% من ميزانية المدن والقرى اليابانية بشكل عام. وبالوصول للعام ١٩٠٦م وجد ضباط التجنيد بالجيش أنه كان من الصعب أن تجد أي مجند جديد جاهلاً بالقراءة والكتابة. وفي عام ١٩١٣م، على الرغم من أن اليابان كانت اقتصادياً لا تزال فقيرة جداً ومتأخرة، فإنها أصبحت واحدة من أكثر منتجي الكتب في العالم، تنشر كتباً أكثر مما كانت بريطانياً تنتجه، وضِعْف ما تنتجه الولايات المتحدة آنذاك!)؛ وهذا ما

يفسر التقدم الهائل الذي وصلت إليه اليابان اليوم التي قامت دعائم نهضتها على التعليم، حيث أنفقت عليه إنفاق من لا يخشى الفقر، بالرغم مما كانت تعاني منه، من شظف العيش وضيقه.. فكان أن تحاملت على نفسها وصبرت على المدى الطويل؛ لأنها استشرفت آفاق المستقبل بعقول القائمين على أمرها ذات الأفق الواسع.

أما الأستاذ أو المعلم فحدِّث عن حاله ولا حرج: تراجع موقعه ووضعه الاجتماعي، فصار لا يلجأ إلى سلك التعليم إلا من استنفد أكثر سبل الكسب الشريف، فلم يجد بُدّاً من التعليم، إما لعجزه عن إيجاد وظيفة أفضل، أو لضعف تأهيله الأكاديمي؛ فالأستاذ الذي كان في موقع اجتماعي مميَّز، له (شنة ورنة) كما يقولون، لم يعد يتمتع بتلك المكانة الغابرة، ولا تلك الهيبة التي عفا عليها الزمن.

وهذا الأستاذ الذي اضطرته الظروف لهذه المهنة التي لم يجد نفسه فيها، سيخلو أداؤه في الغالب من الإبداع وتطوير الذات، وحتى لو استطاع أن يتميز فسيلهث خلف الدروس الخصوصية، وستكل قدماه وهو يسعى من مدرسة لمدرسة، ومن جامعة لأخرى؛ بحثاً عن لقمة عيش كريمة!

أما الجامعات والمدارس، فتعاني بيئتها من الترهل والتردي في المباني والأثاثات؛ وبالتالي يفتقد الطلاب إلى التهيئة النفسية التي تمكنهم من استيعاب المواد المقدمة على النحو المطلوب.

وأما مناهج الجامعات فتدرِّس تاريخ العلوم، وليس العلوم المواكبة التي يمكن أن تفضي لتقدُّم البلاد ورفعتها، ويسود التعقيد والتضارب في مناهج المدارس؛ ويغلب على المناهج في الجامعات والمدارس بشكل عام طابع التلقين والحفظ، ويغيب أسلوب التدريس الذي يُذْكي في الطالب روح النقد والمشاركة في فهم المادة وتحليلها.

لستُ من المؤمنين بنظرية المؤامرة بشكل مطلق؛ فقد أصبح الكثيرون يتخذونها ذريعة لتبرير مشكلاتهم التي عجزوا عن حلها، ولكن التقارير تشير إلى دور الماسونية في



جعل التعليم في البلاد الإسلامية والعربية فاقداً لهويته، وغارقاً في التعقيد والتضارب عبر أذرعتها المنتشرة في المواقع القيادية من بني جلدتنا، كل هذا حتى لا تتفوق بلادنا وغيرها على الصهاينة وأتباعهم!

إذا كانت أمريكا تنفق ٢،٨% من دخلها القومي على البحث العلمي – وهذا ما جعل المراكز العشرة الأولى في العالم للجامعات الأمريكية – وإسرائيل تنفق – كما جاء في تقرير اليونسكو لعام ٢٠١٠م – ما بين ٤،٦% و٤،٨% من ميزانيتها على البحث العلمي، بينما الإنفاق على البحث العلمي في العالم العربي في أقل مستوى له في العالم؛ ففي الدول العربية الإفريقية لم تتجاوز نسبته بين ٠،٣ و٠،٠٤% من جملة الناتج القومي خلال السنوات ما بين ٢٠٠٢ و٢٠٠٧م، بينما وصل الإنفاق في الدول العربية الآسيوية إلى ٠،٠١%، في الفترة نفسها، بينما وصل الإنفاق على البحث العلمي على مستوى العالم ١،٧% من جملة الناتج القومي.

إذا كان حال التعليم والبحث العلمي كما ذكرنا، فكيف لبلادنا وغيرها من الدول العربية أن تلحق بركب الدول المتقدمة وتنهض بمجتمعاتها، ما دامت البحوث تُوضع عندنا في الأضابير والأرفف، حتى صار الأساتذة لا يدققون في مراجعتها، والطلاب لا يبذلون فيها جهداً يُذكر بحيث تأتي بالجديد النافع! فما الفائدة من بحوث تُطوى في غياهب النسيان والإهمال؛ فلا تجد من يترجمها على أرض الواقع، ولا من يطبعها وينشرها على الأقل، بحيث يستفيد منها الآخرون!

ما لم نُعِد النظر في واقع التعليم في بلادنا ونحسِّن أوضاع الأساتذة والجامعات والمدارس والمناهج والبيئة الدراسية؛ فإن بلادنا ستظل قابعة في ذيل البلاد، وسيظل تعليمنا في مؤخرة ركب التعليم في العالم كما هو الحال اليوم بالفعل!

حين يدعو العلم للرثاء!!

ما يثير حيرتي في بلادنا - وأكثر بلاد المسلمين - أن القضايا العلمية والتعليمية تأتي في ذيل قائمة الأولويات، بالرغم من تصريحات المسؤولين الذين يؤكدون في غير محفل اهتمامهم بالعلم والتعليم!

ما زال التعليم في بلادنا قائماً على التلقين، لا على النقد والتحليل، بل الأدهى من ذلك أنه صار تجارة، فالطالب لا يقرأ ويتعلم من أجل العلم، وإنما يضع في نُصبه الوظيفة التي يمني نفسه بها، ويتعامل مع المنهج والامتحانات تعاملاً تجارياً، يجعل تخزينه للمعلومات التي يتلقاها تخزيناً اضطرارياً سرعان ما يزول بزوال الامتحانات والحصول على الشهادات!

ليس الانتشار الكمي لمؤسسات التعليم دليلاً على التطور العلمي للبلاد، وإنما التطور الحقيقي هو الذي يكون مصحوباً برؤيةٍ نوعيةٍ مبنيةٍ على مناهج علمية مواكبة ومُشبِعة لحاجات المجتمع في مختلف التخصصات، لكن أن يرى البعض أن انتشار التعليم على هذا النحو التجاري هو ظاهرة صحية فهو أمر يخالف الصواب، ولا يعدو أن يكون ضرباً من التعميم والتجاوز.

والسؤال الذي يقدِّم نفسه في هذا الصدد هو: هل قام المسؤولون عن التعليم بدراسة توضح ما هو الأثر الملموس الذي أحدثه في المجتمع انتشار التعليم بشقيه العام والخاص؟!

والذي يريد الإجابة على هذا السؤال عليه أن ينظر إلى مآل البحوث العلمية التي يجريها طلاب الدراسات العليا في مختلف التخصصات، حيث تقبع هذه البحوث في أضابير الأرفف، أو تبعثر نسخها الأصلية في أحسن الأحوال في أرفف مكتبات الجامعة



على نحو لا يشجع على الاطلاع عليها، كما عليه أن ينظر في المستوى العلمي لطلاب المدارس والجامعات مقارنة لهم مع أكثر الدول تخلفاً في أوربا مثلاً!

والناظر في حال المعلمين والأساتذة يجد ضعف رواتبهم وسوء أحوالهم المعيشية بوجه عام، وبالتالي يكدون ليعملوا أعمالاً إضافية في أكثر من مدرسة أو جامعة. وهذا بدوره يلقي بظلاله على مستوى أدائهم لتصبح المهنة عند أكثرهم مجرد أداء واجب يفتقر إلى الإبداع والتميز! كما أن الناظر إلى حال الطلاب يجد أكثرهم يتعامل مع المنهج كعبء ثقيل يريد أن يلقي به في أقرب سلة مهملات!

إنَّ دولةً مثل أمريكا لم تتطور هذا التطور الهائل في مختلف العلوم إلا لأنها تنفق ما لا يقل عن ٢،٨% من ميزانيتها سنوياً على التعليم والبحث العلمي، بينما لا نكاد نحن ننفق ٠،٣% من ميزانيتنا على هذا المجال الحيوي المهم، ويكفي أن نقول إن أوضاع المعلمين والأساتذة والباحثين في بلادنا تدعو للرثاء، وربما تجد تاجراً من أصغر التجار يفوق دخله دخل العلماء والباحثين والمعلمين الذين لم يجدوا في العلم والتعليم ما يسد رمقهم!

إن التمكين الحقيقي لا يكون بالخطب الرنَّانة ولا بالتنطع والمكابرة، كما لا يكون بالتسلح بالأسلحة التي نستجلبها من الغرب ونفاخر بها؛ بل التمكين الحقيقي يكون بإعلاء راية العلم بشقيه الديني والدنيوي، والإنفاق عليه إنفاق من لا يخشى الفقر، فهو الكفيل بعون الله عزَّ وجلَّ أن يأخذ بأيدينا إلى مرافيء الرخاء والسؤدد والأمن. ويكفى شرفاً أن أولى الآيات التي جاء بها القرآن الكريم كانت تحض على العلم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③﴾[1].

---

[1] [سورة العلق: الآيات ١-٣].

الشارع العام أم الخاص؟!!

في رأيي أنه ينبغي إعادة تسمية شارعنا العام ليسمى (الشارع الخاص)، أو أي تسمية أخرى تليق بما يحدث فيه من تعدٍّ وتجاوز للحدود!

إذا كنتَ تسير بسيارة في شارع الإسفلت، فكن على حذر ممن سيقطع شارعك فجأة لـ(يخطف) الشارع أو (يسرقه) كما يقولون! وإذا أخطأت في حق أحد أو أخطأ أحد في حقك، فكن على استعداد في كلتا الحالتين لتلقي الشتائم والإساءات بصدر رحب! وإذا كنت تقود سيارتك وسط الأحياء فكن على حذر من الحفر التي أحدثها سكب مياه (البالوعات)، ومن (المواسير) التي تغرق الشارع بالمياه الآسنة! هذا إن كنت محظوظاً فلم تجد الشارع مغلقاً بفعل سُرَادِق فرح أو عزاء، أو تلّة من الأتربة والطوب تُستخدم في البناء! والأهم أن تحذَر ممن سيقطع عليك الطريق فجأة من الرجال والنساء والأطفال.

أما إن كنتَ تسيرُ راجلاً فخذ حِذْرك أسفل منك حتى لا تسقط في مصرف مفتوح الغطاء، أو حفرة في وسط الطريق؛ وخذ حِذْرك أمامك حتى لا تصدمك سيارة متخطية، أو قادمة عكس الاتجاه الصحيح، أو (درداقة) في السوق، أو دراجة (بخارية أو هوائية) يقودها صاحبها في تهور ودون مبالاة!

وعليك أن تكثر من غض البصر كي لا تقع عيناك من حين لآخر على نساء يلبسن ملابس تعفُّ عن لبسها المحارم في البيوت! كما عليك الابتعاد عن أماكن المشادات والمشاجرات التي صارت أمراً معتاداً، وتلافي التجمعات التي تلتف حول الدجالين الذين يروجون – جهاراً نهاراً – للسحر والشعوذة، ولا تنسى أن تتمالك نفسك حتى لا تتقيأ من رؤية القمامة والأوساخ ومياه الصرف الصحي في كل مكان!



الشارع العام فقد هيبته واحترامه عندنا، وأُريق ماء وجهه فلم يعد يأبه له– إلا من رحم – وضاعت (عموميته) تحت وطأة الانتهاكات المتوالية! فبيوتنا أنظف منه، وتعاملنا فيها خير من تعاملنا فيه، واحترامنا لها أكبر من احترامنا له، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن حق الطريق: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر)[1].

الشارع العام ينبغي أن يكون عنواناً للانضباط والنظام والنظافة والأدب؛ فهو مقياس لتديننا وتقدمنا الحضاري، وما دام (عاماً) وملكاً للجميع، فيجب ألا يأتي فيه أحدنا بما يؤذي مشاعر الآخر، أو يضره في جسده وماله.

ويشترك في المسؤولية الحكام والمحكومون الذين يجب أن يعملوا – على السواء – لتعزيز مكانة الشارع العام؛ ليصبح واجهة حضارية، ونموذجاً أخلاقياً رفيعاً.

[1] رواه البخاري برقم (٥٨٧٥).

نحن والمواصلات..!!

إذا كان الإنسان يقضي ثلث حياته في النوم، فإن جُل السودانيين — إلا من رحم - يقضون ما لا يقل عن عُشر حياتهم في المواصلات!

معاناة المواصلات في السودان التي تتكرر بصفة يومية، تجعل الفرد رهن ظروفها وتقلباتها الكثيرة التي لا يحدها قانون ثابت، ولا يحكمها ضابط معيَّن، فقد تجد البص أو الحافلة ببساطة ويسر في أحد الأيام، فتأتي في اليوم التالي - في ذات التوقيت - لتقف في المحطة نصف ساعة أو يزيد دون أن يفتح الله عليك بمقعد خالٍ في بص أو حافلة! لذا لا تستغرب إذا سألتَ سودانياً: كم تستغرق المواصلات من وقتك يومياً؟ فقال لك: ساعتين أو ثلاث، أو قال: ثلاث ساعات أو أربع!

مشكلة المواصلات في بلادنا تتعلق في رأيي بأبعاد ثلاثة: الراكب والعربة والطريق؛ فالراكب تبدأ معاناته بالانتظار في الموقف أو المحطة — خاصة في أوقات الذروة - لوقت قد يمتد إلى ساعة أحياناً، وربما كان انتظاره تحت حرِّ الشمس ولهيبها دون أن يجد ظلاً يتفيؤه!

أما عربة المواصلات، فسواء كانت بصاً أو حافلة، فقد تكون في كثير من الأحيان غير مجهزة من حيث النواحي الميكانيكية، فلا تعجب إذا تعطلت، فاضطر الركاب إلى الاستعانة بعربة أخرى بعد عنت ومشقة! كما أنها غالباً لا تكون مهيأة بحيث تجلب الراحة للركاب، فصار معتاداً أن ترى هيكلها متهالكاً، ومقاعدها متداعية وضيِّقة، أما التكييف فلا يكاد يحلم به أحد! هذا غير إهمال نظافتها، إما من قبل سائق العربة، أو من الركاب الذين يأكلون المكسرات، ويرمون بها في داخلها، فإذا استنكرت على أحدهم قال: وماذا يفعل الكمساري (مساعد السائق)؟! لماذا يتقاضى أجراً؟! أليس لكي ينظف هذه العربة؟!

ثم بعد كل هذه الطوام يقف البص أو الحافلة على نحو عشوائي، كيفما اتفق، ليلتقط الركاب، دون التقيد بمحطات ولا مواقف، فتصل العربة إلى محطتها الأخيرة بعد أن ينام الركاب ويستيقظوا! هذا إذا لم يتعرض لها شرطي المرور؛ لكونها غير مرخصة، أو ليس لسائقها رخصة قيادة؛ فيزيد التأخير تأخيراً!

أما الطريق الذي تسير عليه المواصلات، فهو عبارة عن شوارع ضيِّقة، ملأى بالحفر، والترميمات، والمطبات، والمقاطعات، تعج بالازدحام، وتضج بالتلوث الذي تخلفه عوادم السيارات، وبالضوضاء التي تحدثها أبواقها، فضلاً عن صراخ السائقين الذين يتبادلون عبارات الشتم واللعن مع بعضهم البعض، أو مع المارة، خاصة في التقاطعات وأماكن الزحام!

المواصلات في البلاد المتطورة وسيلة من وسائل المتعة، والراحة، والهدوء، والنظام، والسلوك الحضاري الراقي في التعامل مع الآخرين، حتى آثر الكثيرون ترك سياراتهم الخاصة ليستخدموا المواصلات العامة؛ فكل محطة بها أماكن مريحة للانتظار، فتجد كثيراً من المنتظرين يستفيدون من أوقاتهم في القراءة والمطالعة، وكل بص أو حافلة له موعد محدد للتحرك والوصول، وإذا وقف في محطة من المحطات، فإن الركاب يصطفون تلقائياً في طابور منتظم، حتى يجلس كل منهم في مقعده، لا كما يحدث عندنا، إذ يتزاحم الناس – رجالاً ونساءً – من أجل الحصول على مقعد، فيحصل الأقوياء وحدهم على المقاعد، بينما يفضل البعض حجز مقاعدهم عن طريق القفز من النافذة، أو بوضع حقائبهم الخاصة على المقاعد، وقد يجلس بعضهم فرحاً بالحصول على مقعد، فيتحسس جيبه ليجد أنه قد نُشل!

وفي تلك الدول المتقدمة، تكون المواصلات مزوَّدة بوسائل الراحة، من حيث المقاعد الوثيرة والتهوية النظيفة المناسبة، لا يسمح فيها للسائق أن يُسمِع الركاب شيئاً عبر مذياع الحافلة أو مسجلها مراعاة لاختلاف الأذواق، وقلَّ أن تجد فيها من يضيِّع وقته



في ما لا طائل من ورائه، فجلُّ الناس مشغولون، إما بمطالعة كتاب أو تصفح الإنترنت عبر الجوال، أو غير ذلك من الهوايات المفيدة، لا كما يفعل كثير منا، ممن يضيعون أوقاتهم في الالتفات يمنة ويسرة، أو في الانشغال بالآخرين، أو التفكير في هموم الحياة التي لا تزول بمجرد التفكير فيها، ولو كنا ممن يستغل أوقاتهم استغلالاً أمثل، لكان مجموع هذه الساعات التي تضيع منا يومياً سبباً في حفظ القرآن الكريم، وقراءة الكتب والمجلدات، والحصول على أرفع الأوسمة والشهادات، ولكنه ضعف الهمة، ووضاعة الغايات!

والعجيب بأننا نتعذر بعد ذلك كله بقلة وقت الفراغ، مع أننا في حقيقة الأمر حُرمنا البركة في الأوقات، حين لم ندرك قيمتها وأنفقناها بسخاء في ما لا يعود علينا بنفع ولا فلاح! فكان أن سبقتنا دول غربية لا تدين بديننا، ولكنّ أفرادها يتصفون في جانب الصدق، والنظام، وتقييم الوقت، وترك ما لا يعني؛ بما كان أحرى بالمسلم أن يتصف به.

نحن في حاجة لإيجاد حلول تخفف عن كاهل الناس معاناة المواصلات الحالية، وتجعل منها وسيلة لاستثمار الوقت والاستفادة منه؛ وذلك بإيجاد خطوط دائرية، وتوسعة الشوارع وإنارتها، ووضع ضوابط مشددة لاختيار السيارات التي تعمل في المواصلات، تشمل جاهزيتها من النواحي الفنية، والميكانيكية، والشكلية، وتوفُّر وسائل الراحة بها، وتهتم بتدريب السائقين ومساعديهم في فن التعامل مع الركاب والمارَّة، وتعمل على ترقية سلوكهم، علاوة على تنويع خيارات المواصلات، بإدخال وسائل مثل المترو والترام لتسهم في رفع العبء عن الركاب.

فعلى القائمين على الأمر أن يستشعروا مسؤوليتهم التي سيسألون عنها أمام الله تعالى، فيعمدوا إلى الاضطلاع بأدوارهم تجاه من جعلهم الله تعالى تحت مسؤوليتهم؛ حتى تكون المواصلات مظهراً من المظاهر الحضارية، لا صورة من الصور السالبة المؤسفة.

مواصلاتنا: هل بقي من الكرامة شيء؟!

إذا كنتَ من القلة القليلة التي تملك سيارة فاحمد الله الذي عافاك مما ابتلى به غيرك، أما إن كنت من الذين اعتادوا ركوب المواصلات فاسأل الله أن يجيرك في مصيبتك ويبدلك خيراً منها؛ لأنك لا تملك قرارك، ولا وقتك، ولا كرامتك!

المواصلات والوقت:

ما دمت تستخدم المواصلات فأنت لا تملك وقتك؛ لأنَّ تضييع الأوقات سمة بارزة في مواصلاتنا، فإن خرجت من بيتك فلا تعجب إن وقفت بالمحطة ما يقارب الساعة في انتظار المواصلات التي تشح أحياناً، أو تأتي ممتلئة، أو تنعدم، وقد يمتد انتظارك حتى يفوتك الموعد الذي تريد اللحاق به، وقد تجد مقعداً، لكن الحافلة تكثر الوقوف لتُركِب فيها من يركَب، وتُصعِد إليها من يصعَد، ليضيع من وقتك الكثير؛ حتى صار من المعتاد أن يقول أحدنا: (تأخرتُ بسبب المواصلات)!

وقد تأتي الحافلة العامة، وتقف إلى جانبك، لكن صاحبها يتعذر بأنه لا يعمل؛ دون ذكر سبب، وقد يتعلل بأنه يريد أن يفطر أو يشرب الشاي، أو يصلح ما تعطل من عربته!

وفي البلاد الراقية تأتي كل حافلة إلى المحطة في وقت محدد دقيق يختلف من حافلة لأخرى، وتصل كل حافلة إلى محطتها الأخيرة في وقتها المحدد لها، ومن حق كل مواطن أن يرفع شكوى في الحافلة التي تأخرت عن موعدها، ولو دقيقة واحدة؛ فكل شيء يسير بنظام بديع متقن.

المواصلات والسمع:

وإذا قدِّر لك أن تجد مقعداً في المواصلات، أو مكاناً تقف فيه (شماعة) فثق أنك لا تملك سمعك؛ لأن هذا الأمر متروك لسائق الحافلة، فهو الوحيد الذي يحق له أن



يُسْمِعَك ما يشاء، بأي درجة من الصوت تعجبه، وحتى إن اعترضت فقد لا يأبه لك، مع أن كل بلاد العالم المتحضر يسود الهدوء في مواصلاتها العامة، إذ يُمنع تشغيل أي صوت فيها احتراماً لخصوصية كل إنسان، فمن الناس من يريد أن يقرأ، ومنهم من يريد أن يتأمل، أو يشاهد ما حوله من مناظر، أو يفكر في أموره الخاصة، ومنهم المريض، ومنهم من لا يحب الاستماع للغناء، ومنهم من يستمع ولكن لا يعجبه الفنان الذي يصر سائق الحافلة على فرضه!

المواصلات والمال:

وإذا كنتَ ممن يتنقل عبر المواصلات؛ فأنت لا تأمن على مالك ولا أغراضك، إذ أنك قد تفقد مالك أو جوالك أو مقتنياتك في أي لحظة، إما بالنشل ممن يستغلون الزحام من النشالين — وما أكثرهم – أو بسقوط بعض ما تملك داخل الحافلة دون إمكان العثور عليه مرة أخرى!

وقد تخسر مالك بكثرة الركوب والنزول من المواصلات المكلِّفة، ومن عجبٍ أنك إذا أردت أن تصل إلى منطقة قريبة قد تستغل عدة حافلات من أجل الوصول إليها، وكأن فكرة الخطوط الدائرية اختراع لم يصل إلينا حتى الآن!

المواصلات والاستغلال:

وإذا كنت من المتواصلين بالمواصلات العامة؛ فأنت مُعَرَّضٌ للاستغلال في كل لحظة؛ لأن سعر التذكرة في الحافلة ليس ثابتاً، وإنما يتغير من وقت لآخر، فقد تتركه بسعر في الصباح، وتعود لتجده قد زاد في المساء بحجة أن الوقت تأخر، أو في لحظات الذروة حين تقل الحافلات ويستغل السائقون زحام الناس وتصببهم عرقاً تحت لفحات الشمس المحرقة، وتعبهم من طول الانتظار؛ وبالتالي استعدادهم لدفع ما يُمَلَى عليهم!

كما يزيد السعر عند قلة الركاب حين يتعذَّر السائق بأنه سوف يرجع في رحلة العودة فارغاً من الركاب، أو بعدد قليل منهم!



ولا تسلم بعد ذلك كله من حرب نفسية حين يرفض السائق العمل – خاصة في أوقات الزحام – أو يضغط على دواسة الوقود ويجعلك تركض خلف الحافلة في مشهد مهين للكرامة! مما يدفع بالتساؤل: أين دور الجهات المسؤولة؟! وأين دور ما يسمى بالنقابات في ضبط هذه الفوضى؟!

وإذا حصلتَ على مقعد فاحمدِ الله، ولا تسَلْ بعد ذلك إن كان محطماً أو مهترئاً أو متسخاً بالأتربة أو الزيوت!

المواصلات والإيثار:

وفي المواصلات يعزُّ الإيثار، فالقوي يركب قبل الضعيف، والصغير قبل الكبير، والرجال لا يتيحون فرصة للنساء، ومن استطاع أن يضع حقيبته أو بعض مقتنياته عبر نافذة الحافلة، أو حتى القفز عبرها إلى الداخل بحركة بهلوانية (قردية) فقد حجز مقعداً! أما في بلاد العالم المتقدم، فالجميع ينتظمون في طابور بحسب أسبقيتهم للوصول إلى الحافلة!

المواصلات والفتن:

وإذا كنت من مرتادي المواصلات، فعليك بالتحكم في مشاعرك ما استطعت، وأن تغض بصرك فإنك لا تملك نفسك من الفتنة، فلا يكاد يسلم بصرك من الوقوع على مشاهد التبرج الفاضح والاحتكاك بين الرجال والنساء دون ضابط، وإن أطلقت لبصرك العنان، أو انجرفت مع الإغراءات لعدت إلى بيتك محملاً برصيد وافر من الذنوب والسيئات!

ختاماً:

مواصلاتنا بحاجة حقيقية لإعادة تأهيل، وضبط، وتنظيم، وتقنين؛ حتى تكون محفزة للعمل والإنتاج، لا مثبطة للهمم ومزهدة في العطاء، وهذا هو دور الجهات المسؤولة – سواء كانت حكومية أو نقابية – أمام الله تعالى قبل مسؤوليتها أمام الناس عن هذه المواصلات التي لا تحفظ لأحد كرامته، ولا تحترم وقته، ولا تقدر خصوصيته، وقد قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**)[1].

---

[1] رواه مسلم برقم (١٤٢).

هل نحن عرب أم أفارقة؟!

- (نحن لسنا عرباً، فلماذا يصر البعض على مجاراة العرب في اللغة العربية؟!)

هذا السؤال سألني إياه أحدهم عقب خروجنا من احتفال أقيم لتكريم الطلاب الذين مثلوا جامعة الخرطوم فحصلوا على المرتبة الأولى في المسابقة الدولية للمناظرة باللغة العربية الذي شاركت فيه ثلاث وأربعون جامعة من مختلف أنحاء العالم في دولة قطر.

وأعاد هذا السؤال إلى الذاكرة سؤالاً ممجوجاً لطالما طرحه المثقفون: هل نحن عرب أم أفارقة؟ وأعجبتني في هذا الصدد مقولة للدكتور حيدر إبراهيم - الذي أختلف معه في كثير من المرجعيات والمنطلقات؛ لكونه يسارياً، بل ماركسياً كما ذكر في إحدى الصحف! — حيث قال: (الحديث عن الهوية هو حديث العاطلين، فلو كانت هنالك تنمية حقيقية لما انشغل الناس بمثل هذه الأسئلة).

وقد أصاب د. حيدر إبراهيم إلى حد كبير في ما ذهب إليه، فقد صرف المثقفون أوقاتهم وسوّدوا الكتب والصحف للإجابة عن سؤال الهوية، وهل نحن عرب أم أفارقة، بل وأنشؤوا المدارس الفكرية، من داعٍ للأفريقانية، وداعٍ للعروبة، وموفِّق بين الاثنين، مثل مدرسة الغابة والصحراء التي ترى بأن السودان عربي إفريقي.

والسؤال الذي يتراءى في ثنايا هذا السياق هو: ما الجدوى من الحديث عن الهوية؟ هل إذا عرفنا من نحن: سيؤدي ذلك إلى حل مشاكلنا، وتناسي خلافاتنا، والتفاتنا للبناء والتعمير والتنمية، ليسود السلام والاستقرار ربوع البلاد؟!

أصاب د. حيدر في الجزئتين: أولاً حين ذكر أن حديث الهوية هو حديث العاطلين، وثانياً حين ذكر أنه لو كانت هناك تنمية حقيقية لما انشغل الناس بالحديث عن



الهوية؛ فالتنمية إذا كانت متوازنة ومستدامة، فإنها تعني تقليص الفوارق بين الناس، وبالتالي إزالة الغبن بين مختلف شرائح وطبقات وقبائل المجتمع.

حديث الهوية لا يحتاج - في رأيي - إلى كثير كلام ولا مجادلات ومناقشات لا طائل من ورائها، ولا مدارس فكرية يُصرَف فيها الوقت والجهد والمال لتجيب عن سؤال: هل نحن عرب أم أفارقة، أم عرب وأفارقة.

نحن ببساطة لسنا عرباً ولا أفارقة بل سودانيون، والسودانية هي قومية تجمع في داخلها شتى القبائل في شمال السودان وجنوبه وشرقه وغربه، نتجت من امتزاج الثقافة الأفريقية بالعربية، ومصاهرة الدماء الأفريقية للدماء العربية، لذا فالسودانيون الذين يقولون بأنهم عرب مخطئون، كما أن السودانيين الذين يقولون بأنهم أفارقة مخطئون.

والذين يُقْصُون اللغاتِ الأخرى مخطئون؛ لأن اختلاف هذه اللغات ينبغي أن يكون اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وفي المقابل يخطئ من يحاول إقصاء اللغة العربية؛ فهي لغة التواصل ووسيلة التعايش التي تجمع مئات القبائل التي تعيش في السودان، وتتحدث بلغات ولهجات متعددة، والأهم من ذلك أنها لغة القرآن وأداة فهمه وفهم السنة المطهرة؛ وهي بالتالي نعمة وليست نقمة، وينبغي أن تكون جسراً للحوار والتعايش السلمي، ومرآةً للتعدد العرقي والثقافي الذي يميِّز السودان عن غيره، بحيث يكون هذا التعدد أداة لإثراء العربية لا إفقارها.

وأضيف إلى ما قاله د. حيدر أنه لو كان هناك تطبيق حقيقي وعملي لمبادئ الإسلام لما كانت هذه التعددية العرقية والثقافية عاملاً من عوامل التناحر والتباغض والتفاخر، بل كانت ستُعدُّ عاملاً من عوامل الانسجام والتعارف والتآلف بين الناس، فالله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

---

(1) [سورة الحجرات: الآية ١٣].



ولو كان هناك استصحاب لقيم الإسلام لما كان معيار التفاضل بين الناس الجنس أو القبيلة أو السحنة أو المستوى الاجتماعي؛ وذلك للآية السابقة، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: (**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمى على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض، إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب**)[1].

(١) (رواه الترمذي برقم (٣٢٧٠)، وحسنه الألباني.

واحد.. صفر.. واحد..!!

(واحد.. صفر.. واحد) ليس نظرية معقدة في الرياضيات، ولا شفرة من الشفرات يصعب فكها، وإنما هو ببساطة برنامج غذائي معروف لدى طلاب الجامعات المقيمين بالداخليات.

فقد صليت المغرب ذات يوم بمسجد لإحدى الداخليات، وبعد الصلاة التقيت بأحد المعارف، فدعاني لتناول الطعام، فاستغربت لأن الوقت لم يصادف وجبة من الوجبات، ونظرت في المطعم فإذا هو مكتظ بالطلاب، فسألته وقد غمرتني الدهشة:

- هذه الوجبة التي تريد تناولها بعد صلاة المغرب: هل هي غداء أم عشاء؟!

فقال لي ببساطة:

- غداء وعشاء، فنحن نعمل بنظام (واحد صفر واحد).

وفهمت منه أن الرقم واحد يعني وجبة، والرقم صفر يعني أن لا وجبة؛ أي أن هؤلاء الطلاب يتناولون وجبتين، فيتنازلون عن الغداء، ويتناولون العشاء مبكراً حتى يسد خانة الغداء والعشاء معاً! وما ذلك إلا لضيق اليد وقلة الحيلة!

وطارت بي الذاكرة إلى زمان غابر كان للطالب الجامعي فيه (شَنَّةٌ وَرَنَّةٌ)، وكانت الداخليات عبارة عن فنادق (خمس نجوم) كما يقولون، حتى إن أقارب الطلاب كانوا يزورونهم من حين لآخر حتى يستمتعوا بلذيذ الطعام وطيِّب الشراب! لذا كانت جامعاتنا في مقدمة التصنيف العالمي للجامعات، بينما أصبحت اليوم لا تُذكر حتى في المائة الأوائل!



وللأسف التحقنا بالجامعات لنجد أن المنابع قد جُفِّفت، وأن الطالب الجامعي المقيم بالداخليات، بعد أن كان جاذباً للإعجاب والاحترام، صار مثيراً للشفقة والرثاء!

وهكذا اهتمت سياسة التعليم العالي بالكم، وأهملت الكيف، فبنت عشرات الجامعات والمعاهد العليا، لكنها أهملت أهم مقوِّم من مقومات العملية التعليمية يُعوّل عليه في قيادة الأمة ونهضة المجتمع: أهملت الطالب الجامعي الذي يعتبر رأس المال الحقيقي الذي لا يقدر بثمن، فما فائدة البنيان إذا أهملنا الإنسان؟! وما جدوى الكتل الخرسانية إذا أغفلنا العقول البشرية؟!

الأمة التي لا تُولي عنايتها لطلاب العلم فيها، ولا توجِّه طاقاتها ومواردها للتنمية البشرية أمة لا تستحق أن تعيش إلا في ذيل الأمم، ومؤخرة التاريخ، في ركن قصيٍّ مظلم!

وظائف شاغرة أم ضمائر فارغة؟!

يقرأ الخريجون الذين تفرِّخهم جامعاتنا بالآلاف كل عام إعلانات الوظائف الشاغرة على صفحات الصحف، فيداعبهم الأمل في شغل إحدى هذه الوظائف ومخيّلتهم تنسج أحلاماً وردية عن مستقبل مشرق مفعم بالسعادة والطمأنينة.

ويُعِدّ هؤلاء الخريجون شهاداتهم والأوراق الثبوتية اللازمة، ويسارعون للوقوف في صف الوظائف الطويل، وكلٌّ ينتظر دوره ويمنِّي نفسه بوظيفة في إحدى الشركات، ولكن أغلب هؤلاء لا يدري أنه قد خسر المال الذي نسخ به شهاداته وركب به المواصلات، كما خسر وقته الذي ضيَّعه في الوقوف في الصفوف، وفي نسج الأحلام الملائكية دون طائل!

حكى أحد العاملين بإحدى الشركات أنهم أعلنوا ذات يوم عن وظائف بالشركة، فجاءتهم مئات الطلبات للتقديم لهذه الوظائف، مع أن أمرها كان قد حسم منذ أكثر من شهر، وتقلد أصحابها مناصبهم! وعندما سئل عن السبب ذكر بأنهم يفعلون ما يقتضيه القانون بالإعلان عن الوظائف، ولكن الاختيار أمر يخص الشركة!

قلت: سبحان الله! إلى هذه الدرجة يصل الاستخفاف بالناس؟! ما ذنب هؤلاء الذين غُرِّر بهم ليصبحوا ضحية للتحايل على القوانين والمحسوبية؟!

هكذا يتحايل أصحاب النفوس الضعيفة والقلوب المريضة على القوانين، لا يراعون سوى مصالحهم، ولا يأبهون لمن يروح ضحية خداعهم وغشهم، و(من غشنا ليس منا)[1]، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] رواه البخاري برقم(١٠١).



إن أزمة الضمير التي صارت عند الكثيرين أمراً معتاداً، حتى سَمّى أصحابها التحايل ذكاءً، والتلاعب بمصائر الناس حذقاً، هذه الأزمة تنم عن ابتعاد أصحابها عن الدين، ونسيانهم لمراقبة الخالق عزَّ وجلَّ الذي حرّم الظلم على نفسه وجعله محرماً على الناس.

وفوق ذلك كله، نسي هؤلاء المخادعون أن الأمور دول، وأنها ستؤول إلى غيرهم كما آلت إليهم، كما نسي هؤلاء دعوة المظلوم التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**اتقِ دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**)[1]، هذه الدعوة التي تخترق الحُجُب، فيستجاب لصاحبها، وإن كان كافراً، ناهيك عن أن يكون مسلماً. والواقع المشاهد يبيِّن لنا أن كثيراً من هؤلاء الظلمة قد ابتلاهم الله بالأمراض المزمنة والمشاكل التي لا أول لها ولا آخر؛ لتذهب أموالهم التي جمعوها من غش الناس هدراً، لا يذوقون لها طعماً، ولا يجدون لها لوناً ولا رائحة.

هل للمسؤولين أن يعيدوا النظر في مدى تطبيق القوانين التي تحمي حقوق الخريجين في التوظيف والمشاركة في تنمية المجتمع حتى لا تكون حبراً على ورق؟ وهل للقائمين على أمر الوظائف أن يعيدوا حساباتهم ويملؤوا ضمائرهم الفارغة من مراقبة الخالق عزَّ وجلَّ؛ فيُشغِلوا الوظائف الشاغرة بمن يستحقها، دون تمييز وتزييف؟!

---

[1] رواه مسلم برقم (١٥٦٣).

الخطة (ب)..!!

في أعقاب الارتفاع الجنوني للأسعار بعد انفصال الجنوب ومعه آبار البترول، ورفع الدعم عن المحروقات؛ اتصل أحد الشباب بصديقه وسأل عن حاله فأجاب:

- بعد ده فكرنا في الخطة (ب).
- وما هي الخطة (ب)؟!
- برة.
- ؟؟!!

ودهش ذلك الشاب؛ لأن صاحبه - حسب علمه - يعمل في وظيفة مرموقة؛ وتساءل في نفسه: إذا كانت هذه الأوضاع الأخيرة قد دفعت أمثال هذا الشاب إلى التفكير الجدِّي في الغربة، فماذا يفعل الشباب الذين يعملون في وظائف متدنية الدخل، أو الذين لا يجدون عملاً؟!

ولم يكن هذا الشاب بدعاً من أبناء جيله، فقد فكر كثيرون مثله في العمل خارج السودان وهم يرددون عبارات مألوفة مثل (البلد دي ما بتتقعد)، و(نحنا بنضيع زمنًا ساكت)، و(أخير نكسب زمنا)، و(البلد دي بقت صعبة)، هذا غير العبارات النابية التي لا يخلو بعضها من لعن وشتم وسبّ!

منذ فترة قرأنا وسمعنا عن هجرة حوالى خمسة آلاف طبيب إلى إحدى الدول الخليجية، وبين كل فينة وأخرى نسمع بهجرة عقولنا وسواعدنا إلى خارج البلاد، غير آسفين على بلد عجز عن استيعابهم وإشباع طموحاتهم. والأدهى من ذلك أن إحدى الصحف طالعتنا بخبر حزين: ثلاثة آلاف تأشيرة للخارج يومياً بجهاز شؤون السودانيين العاملين في الخارج (المغتربين)! وأوردت صحيفة (الأهرام اليوم) بتاريخ ١ مايو ٢٠١٣م،

نقلاً عن وزيرة تنمية الموارد البشرية أن عدد المهاجرين السودانيين عام ٢٠١٢م بلغ ٩١٩٣٦شخصاً!

والسؤال الذي يرد إلى الخاطر في هذا السياق: لماذا يغيب حبُّ الوطن عن شبابنا حتى لا تكاد تجد شاباً يرفض فرصة للعمل خارج السودان براتب مغرٍ بحجة أنه يريد أن يسهم في بناء وطنه، أو لأنه يشعر أن لبلاده حقاً عليه، أو أنها تحتاج إلى فكره وجهده! فهل هو خلل في التربية الوطنية جعل البلاد تهون على شبابها الذين يُعوَّل عليهم في نهضتها؟ أم هو عجز القائمين على الأمر عن توظيف عقول وطاقات الشباب كما ينبغي.

بلادنا غنية بثرواتها الطبيعة، ولكن ثروتها الحقيقة تكمن في ثروتها البشرية التي تُعد الركيزة الفعلية للتنمية والنهضة؛ وكل البلاد التي نهضت وارتقت قامت نهضتها في المقام الأول على رأس المال البشري قبل أن تقوم على الثروات الطبيعية؛ بدليل أن كثيراً منها لا يملك ثلث ما لدينا من ثروات طبيعية وزراعية وحيوانية.

حينما سئل الأب الروحي لنهضة ماليزيا مهاتير محمد عن سر هذه النهضة التي شملت مناحي الحياة كافة، لم يُرجِع السبب إلى الثروات الطبيعية التي حباها الله لهذا البلد، أو الخطط الاستراتيجية التي استخدمها خبراء التنمية، بل قالها كلمة واحدة لخصت كل شيء (التشجيع)، تشجيع العقول والطاقات البشرية والمشاريع الهادفة التي هي قوام التنمية وركيزتها الفعلية.

فهل يعي القائمون على الأمر ذلك، ويعمدون إلى إقامة المشاريع التي تعتني ببناء الإنسان وتطويره قبل بناء المشاريع التنموية والإنشائية؟ وهل يعملون على تشجيع وتفجير الطاقات والعقول البشرية قبل تفجير ثروات باطن الأرض وظاهرها؟!

ملابس أنيقة وابتسامات عريضة..!!

كنت أرتدي ملابس أنيقة حين ولجتُ إلى سُرادق ذلك الحفل المترف، وقد خامرني شيء من الزهو وأنا أتطلع إلى ملابسي وحذائي اللامع بفعل الطلاء.

وتوجهتُ بثقة إلى أهل (العريس) الجالسين في مقدمة السرادق لاستقبال الزائرين، فإذا بي أفاجأ بنهوضهم لمصافحتي بحرارة. وعانقني أحدهم بشدة وهو يبتسم ابتسامة عريضة، فقلت في نفسي وأنا أتطلع إلى وجهه في دهشة: هل هذا الرجل يعرفني؟! وحاولت جاهداً أن أتذكر متى تعرفت إليه، ولكن دون جدوى!

وجلست إلى إحدى الموائد الفخمة وأنا أتطلع في إعجاب إلى السرادق الضخم الذي تكسوه الزينة، وينطق كل جزء من أجزائه بالفخامة والترف، وجال نظري في الطاقم الذي يقوم بخدمة الضيافة بنشاط وحيوية، وفي الحضور الذين يتصدرهم المسؤولون بالدولة، والوجهاء، ورجال الأعمال، وغيرهم من الذين يشغلون مراكز مرموقة في المجتمع.

وبينما كنت أجول بنظري يمنة ويسرة، إذا برجل تبدو على ملامحه أمارات الثراء، ويبدو من ملابسه أنه من الذين يشغلون إحدى المناصب المرموقة. استماحني عذراً وسألني في أسلوب مهذب: هل العربة (الكورلا) التي تقف في الخارج تخصك؟ كدت أقول له: يا أخي أنا لا أملك سيارة (كورلا) أو غيرها، ولكنني تمالكت نفسي وقلت له مبتسماً في هدوء: لا إنها ليست لي! وتركني الرجل غارقاً في أمواج من الحيرة والتعجب وأنا أتساءل في نفسي: ألم يجد من بين هؤلاء الحضور كلهم من يسأله عن هذه السيارة الفخمة غيري؟! يا تُرى ماذا كان سيقول لي لو قلت له: إنني لا أملك سيارة؟!

وفي الحي الذي أقطنه كان صاحب إحدى البقالات يباهي ببقالته الكبيرة التي تعج بشتى البضائع الراقية حتى اعترى هذا الرجل شيء من الكِبْر والغرور، فأصبح يبيع لمن



يشاء ويترك من يشاء حسب شكله، ومتى راق له ذلك، وإذا سأله أحدهم عن بعض السلع التي يعتبرها هو حقيرة يجيب عليه: شفت ليك بقالة زي دي بتبيع حاجة من النوع ده؟!

وفي ذلك اليوم كنتُ أرتدي تلك الملابس الأنيقة حين هبطتُ من الحافلة العامة أمام البقالة لأجد صاحبها يجلس على كرسي أمام البقالة، ففاجأته بالوقوف أمامه. واستغليت الظلام في تلك الليلة لألقي عليه السلام وأصافحه ذاكراً اسمه بصوت جاد حازم، فما كان من صاحبنا إلا أن نهض مضطرباً وهو يصافحني متطلعاً إلى ملابسي بهيبة وارتباك، ثم سارع بإحضار ما طلبته منه، وأنا لا أكاد أتمالك نفسي من الدهشة والفرح!

هذان الموقفان ليسا من نسج خيالي أو وحي إلهامي ولكنهما للأسف من أرض الواقع المعاش، فهما ينمّان بوضوح عن المادية التي تدير حياة أكثر الناس الذين يقيّمون الناس بمظاهرهم، ويعدلون عن الجواهر إلى الصور، وإن كان الموقفان ساخرَينِ، فهي سخرية مريرة وليست لاذعة، لم نرد بها أن نسيء إلى أحد، بل أملنا أن نعيد بها سوياً تقييمنا للأمور وللناس على حقائقهم ومعادنهم الأصيلة، عملاً بقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ**﴾[1]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأشار بأصابعه إلى صدره**)[2].

(1) [سورة الحجرات: الآية ١٣]

(2) رواه مسلم برقم (٢٥٦٤).

السعر بالشكل..!!

كنت أبحث عن سلعة ما في سوق مخصص لها، فسألت الدكان الأول عن سعرها فقال لي البائع: عشرة جنيهات. فقلت له بدهشة: إن سعرها غالٍ جداً، ثم تركته دون أن أزيد إلى الدكان الثاني، فقال لي: ثماني جنيهات. ثم ذهبت إلى الثالث فقال: أربع جنيهات!

تساءلت في نفسي كيف لذات السلعة أن يتباين سعرها إلى هذه الدرجة، ثم تذكرت أنني كنت أرتدي زياً رسمياً قد يوحي بالثراء والقوة الشرائية العالية، وتذكرت مقولة شهيرة لرجل لم يعبأ به أحد حين ارتدى ثياباً بسيطة، ولكنهم اهتموا به جلّ الاهتمام حين تلفَّح بأجمل الثياب وأغلاها، فقال حين أُحضر له الطعام الباذخ: (كل يا كمي قبل فمي)!

وتذكرت حين كنت ألبس ذات الثياب الرسمية، فدخلت سُرادق عرس لأحد الأثرياء فاهتم بي أهل العريس غاية الاهتمام وعانقني أحدهم بقوة - ولعله ظن أنني أحد المسؤولين - وما أكثرهم حتى صار من المعتاد أن تقابل أو تجلس إلى جوار مسؤول فلا تعرفه — حتى إن أحدهم سألني - دون غيري — إن كانت السيارة الفارهة التي تسد الطريق على سيارته هي سيارتي، فاعتذرت له على الفور وقد تملكتني الدهشة لأن سيارتي الوحيدة كانت قدمي!

وحين ذكرت هذه القصة لأحدهم قال لي: ما كان يجب أن تعتذر مباشرة! فقلت: كيف؟! فقال: كان يمكن أن تسأله عن لوحة العربة، فإذا ذكرها لك تجيب بأنها ليست سيارتك!



حقيقة، إن أسعار السوق اليوم بحاجة إلى إعادة النظر فيها، ووضع حد لجشع بعض التجار الذين يسعون للمكسب السريع دون ضابط أو رقيب، فلا بد من إيجاد آليات تراجع وتقيِّم نوعيات السلع وجودتها وأسعارها؛ حتى لا يقع المواطن فريسة للطمع والاحتيال.

عفواً: هل كُتب سعر الحذاء خطأً؟!

حين استيأست أنا وزميلي من الأحذية الرخيصة التي لا تلبث سوى أشهر معدودة حتى يتقطب حاجباها، ويتساقط وجهها البلاستيكي اللامع (المزيف) ليحل محله وجه مليء بالتجاعيد.. حينها قررنا شراء أحذية (جلدية أصلية راقية)!

وما إن ولجنا المحلات الراقية لنختار أحذية أفضل، حتى صُدمنا من أول وهلة حين هالتنا الأسعار الفلكية! فما كنا نظن في أسوأ كوابيسنا أن يبلغ سعر حذاء أكثر من ٥٠٠ جنيه، حتى مازحت أحد الباعة قائلاً: هل سعر الحذاء مكتوب خطأً، فكُتب من اليمين إلى الشمال بدلاً من العكس؟ ولكنني لم أجد إلى هذه المزحة سبيلاً عندما وجدنا حذاء سعره (٥٨٥) جنيهاً؛ لأن محصلة قراءته من الاتجاهين واحدة!

وما كان منا حين وجدنا الأسعار على هذه الشاكلة من الغلو والبعد إلا أن أصبحنا نسأل أصحاب المحلات منذ البداية عن أرخص حذاء بدلاً من سؤاله عن سعر حذاء معين، فكانت الإجابات: ١٧٠، ١٤٠؛ ولما كنتُ وصاحبي من ذوي الدخل المحدود، ما كان أمامنا سوى أن ندير ظهورنا في كل مرة ووجوهنا ترسم ملامح أمل خائب!

تساءلنا حينها: هل هذه الأسعار منطقية، أم أن هذه المحلات ارتبطت بالمسؤولين في الدولة وأصحاب الأموال فلم يعد فيها مكان للمواطن البسيط؟! وأدركنا يقيناً أن بلادنا تزداد فيها الهُوّة اتساعاً بين الأغنياء والفقراء، وتتجلى فيها المفارقات بشكل مخيف، فبينما لا يتجاوز سعر أغلى حذاء في الأحياء الشعبية ٧٠ جنيهاً، يفوق سعر الحذاء في المحال الراقية ٥٠٠ جنيه!

وبالفعل بلادنا يصدق فيها قول القائل: (ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مُضيَّع)!

النعمة الموفورة.. والحقُّ المُضيَّع!

عندما اقترب وقت غروب الشمس في إحدى (الدلالات) بالعاصمة الخرطوم، وأوشك وقت الدلالة على الانتهاء، جأر أحدهم بالبكاء بصوت عالٍ، فاجتمع حوله الناس، وسألوه في دهشة عن سبب بكائه المفاجيء، فقال لهم والعبرات تكاد تخنقه وهو يشير إلى أبواب ونوافذ معروضة للبيع على ما يبدو:

– هذه الأبواب والنوافذ هي أبواب ونوافذ بيتي، وقد نزعتها وتركت أسرتي في مهب الريح، بلا أبواب ولا نوافذ؛ لأنهم لم يذوقوا طعاماً منذ ثلاثة أيام!

ثم أضاف في حزن مرير:

– وبالرغم من ذلك لم يرضَ أحد أن يشتري مني شيئاً!

وانتهى المشهد بأن جمع الناس له ما استطاعوا من مال وقلوبهم تكاد تحترق ألماً وحسرة على ما آل إليه حال بلادنا، حتى اضطر بعض الشرفاء لكي ينحوا هذا المنحى تحت وطأة الفقر المفضي إلى الذل والهوان!

حين سمعت هذه القصة من صديقي الذي كان شاهد عيان عليها، تذكرت القول المنسوب إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: (إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء؛ فما جاع فقير إلا بما متع به غني، وما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مُضيَّع)، وهو الذي نُسب إليه أيضاً قوله: (لو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته).

لعل ما تعاني منه بلادنا وكثير من دول العالم الثالث هو اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء؛ حتى كادت الطبقة الوسطى تتلاشى في ظل الضغوط المعيشية القاهرة، ليزداد الأغنياء غنى والفقراً فقراً؛ وتبرز الفوارق الاجتماعية الواضحة، فيصبح المجتمع صنفين – ذُكرا في المقولة المنسوبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (النعمة الموفورة) و(الحق المضيع) – ولم يعد غريباً على أحد أن تجد كثيراً من الناس يصبحون بين عشية

وضحاها في مصافِّ الأغنياء، يقطنون أفخم المنازل في أرقى الأحياء، ويقودون السيارات الفارهة، ولا أحد يحاسب أو يسأل (من أين لك هذا؟!)؛ ورحم الله أبا بكر الصديق رضي الله عنه الذي قال حين وُلِّي الخلافة: (أيها الناس، فإني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإنْ أحسنتُ فأعينوني، وإنْ أسأتُ فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقَّه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحقَّ منه إن شاء الله).

ولعل لسان حال من رأوا ذلك الرجل الذي غلبه البكاء هو (لو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته)!

إن الزكاة وحدها لو أخرجت على الوجه الصحيح، دون تهرب أو تحايل، وصُرفت على مصارفها الثمانية المأمور بها في كتاب الله عزَّ وجلَّ كفيلة بإحداث التوازن المطلوب بين الأغنياء والفقراء – وإن كان بعض العلماء يرون أن الأولى في بلادنا أن تصرف الزكاة للفقراء والمساكين – ولو كانت الزكاة في بلادنا تُصرف في أوجهها الصحيحة لما رأينا أمثال هذا الرجل، ولما اكتظت مساجدنا وشوارعنا بالمتسولين والسائلين.

وهذا الفقر المدقع الذي لا تخطئه العين في بلادنا يستدعي إعادة النظر من الدولة في مصارف الزكاة وإحكام الرقابة عليها، ومحاسبة المعتدين على المال العام؛ ويستدعي من الدعاة والمصلحين إذكاء روح الإيمان التي تُعلي من شأن الأمانة والصدقة والإنفاق؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[1].

[1][سورة البقرة: الآية ٢٤٥].



الطبعة الأولى

يناير ٢٠١٦م

رقم الإيداع

٢٠١٥/٣٢٥م

ISBN 978-99942-3- 716-6 ردمك